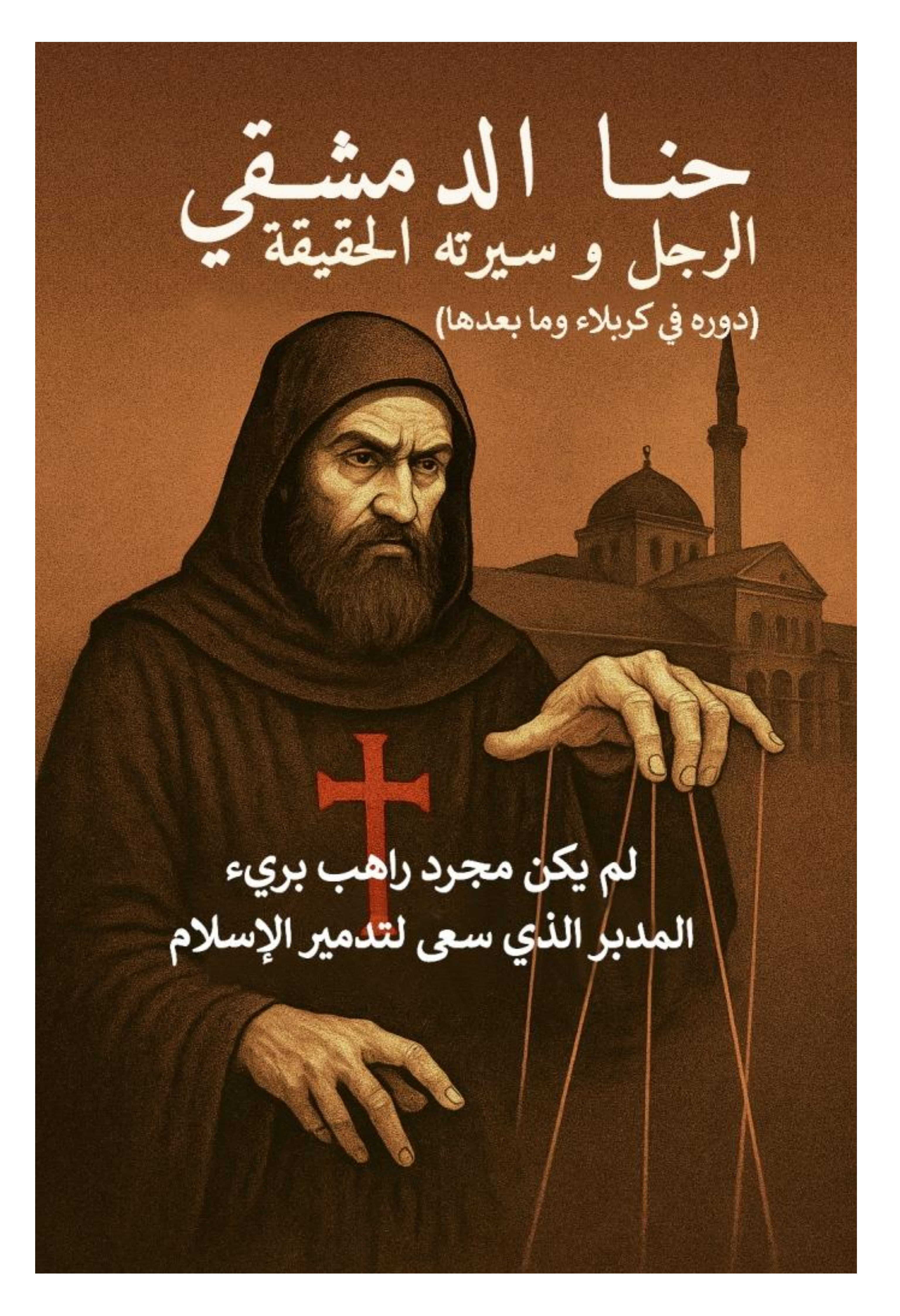

حنـا الدمشـقي
الرجل و سيرته الحقيقة
(دوره في كربلاء وما بعدها)
لم يكن مجرد راهب بريء
المدبر الذي سعى لتدمير الإسلام

| | |
|---|---|
| الكتاب | القديس يوحنا الدمشقي<br><br>(السيرة الحقيقيّة ودوره في كربلا وما بعدها) |
| المؤلف | الشيخ د. جعفر المهاجر |
| الناشر | دار بهاء الدين العاملي للنشر والتوزيع |
| بعلبك-لبنان هاتف: ٣٧٧٧٥٦ (٨) ٠٠٩٦١ | |
| | |

# القديس يوحنا الدمشقي

## السيرة الحقيقيّة ودوره في كربلا والحَرَّة

الشيخ د. جعفر المهاجر

# الفصل الأوّل

(1)

منذ بعض الوقت، وبمحض الصدفة، وقعتُ بشاشة التلفاز على حديثٍ لكاهنٍ لبناني معروف. تناول فيه بعضَ تاريخ المنطقة، التي نسميها نحن المؤرخين المُنتمين "الشام"، لأن موقعه الجغرافي شمال / شام شبه الجزيرة العربية.

أثناء الحديث أتى الكاهن، وكأنما عَرَضاً، على ذكر مَن سمّاه "القديس يوحنّا الدمشقي"، ذكراً محفوفاً بكامل التّجلّة والتقدير. مع وصفه إياه فقط بأنه "جليس الأُمويين". وكأنّه يبتغي أن يودع في أذهان مُشاهديه أن أكثر صفات الرجل أهميّةً وأبرزها على الإطلاق، أنّه كان على علاقة حميمة وبريئة مع رجال الأُسرة الأُمويّة الحاكمة الذين عاصرهم. لمجرّد أنّهم يأنسون به وإليه فيُجالسونه. وعَبْرهم طبعاً بالإسلام وبالمسلمين من حولهم.

لكنّنا نحن، بما لدينا من معرفةٍ وافيةٍ بمواصفات الفترة السياسيّة التي عاش فيها الرجل وأُسرته من قبله في "دمشق". إلى معرفةٍ مُفصّلَةٍ بسيرته الشخصية وبأعماله، من وجهة نظرنا على الأقلّ، لسنا نرى في هذا الكلام جملةً وتفصيلاً، إلا أنه أقربُ إلى التغطية المقصودة على

حقائق سوداء، من وجهة نظرنا أيضاً، رافقت سيرةَ يوحنا واسمه. كما نالت نمط العلاقة بينه وبين السلطة الأُمويّة، طوال فترة الحكم الظاهري المأزوم لمعاوية، ثم لـــ(ابنه) المزعوم يزيد. ثم لفترتين قصيرتين لمروان بن الحكم ولمن سُمّي معاوية الثاني، الذي لسنا نعرف مَن هو بالتحديد، ولا ابنَ مَن هو. أي ما مجموعه طوال ربع قرنٍ قمري من الزمان (٤١ ـ ٦٤ هـ / ٦٦١ ـ ٦٨٣ م). أثناءها نعتقد أنّه لم يكُن لأولئك الأربعة، المتوالين على منصب الخلافة في "الشام"، إلا الاسم من السلطة بمختلف درجاتها. في حين كان لأبناء أُسرةٍ نصرانية ومسيحيّةٍ ـ تحمل اسماً سريانيّاً عُرفت بـآل "سرگون"، وبالخصوص لثالث الأُسرة يوحنّا هـذا، أكثرَ تلك المدّة. كان لها المالكيّةَ الحقيقيةَ الوحيدةَ للقرار السياسي، والملاءة المالية في كل "الشام". وكان ثالثها منصور العامل وفق مقاصده هو، بما ومَن يُمثّل دون مُنازع، كما سنبيّن في الآتي. لكن ذلك الكاهن اللبناني المُحدّث لم يـرَ، أو بالأحرى حاول أن يُخفي عنّـا كل ذلك. بحيث لا نـرى منها إلا صفة "جليس" الهيّنة اللطيفة.

(2)

أمّا الاســـم الحقيقي لثالث الأُسرة فهو منصور بن سرگون بن منصور الكلبي. نسبةً إلى بني كلب، الأُسرة العربية ـ السريانيّة المعروفة، التي كانت نصرانيّةً إجمالاً، كأكثر سكان

بلاد "الشام". تتكلّم جزئياً لهجةً من لهجات اللغة السريانيّة الغربيّة، إلى جانب العربية. شأن أكثر السكان الأُصلاء في المنطقة.

كانت حاضرةُ الأُسرة المعمورة بأبنائها، في قلب البادية الشّامية، بلدٌ اسمه "حوّارين". قيل إنّه، أي الاسم، نسبةً إلى بعض حواريي السيّد المسيح (عليه السلام). وفيه معالم أثريّـــة مسيحية قديمة. منها قصرٌ صغير منسوبٌ إلى يزيد المَزعوم ابناً لمعاوية. وهو في الحقيقة ابن ميسون الكلبيّة، من أبٍ غير معروف. كما بيّنّا في مقالتنا (أُسطورةٌ اسمها يزيد بن معاوية). والقصرُ معروفٌ بين أهلها، حتى اليوم، فيما قيل، باسم "قصر يزيد". الذي وُلد وعاش في "حوّارين" فترة طفولته وفتوّته. ضمنه كنيسة صغيرة. قيل أيضاً أنّ آثارها ما تزال قائمة.

والحقيقة أنّ منصور هذا هو ثالث ثلاثةٍ من أُسرة. دخلوا تاريخ المنطقة الشاميّة من أوسع الأبواب. أوّلهم منصور بن سرگون الأوّل، وثانيهم ابنه سرگون بن منصور، اللذان عاشا وعملا فترة خلافة معاوية. وكانا منصرفَين كـــلّ الانصراف إلى عملهما في خراج "الشام"، ضبْطـــاً وتحصيـــــلاً وتسديدا. وثالثهم منصور الثاني ابن سرگون. الذي أدرك فترة معاوية مدةً قصيرة، أثناء المرض العُضال لهذا، في خواتيم حياته. ولقي منه، أعني المرض، الويل العظيم في السنتين الأخيرتين منها. والباقي من عمر منصور كان طوال الفترة التي (حكم) أثناءها

يزيد المَزعوم ابناً لمعاوية، وبعده مدة غير معلومة، لكنّها لم تكُن طويلة. هي الـــــتي اكتسب أثناءها فيما بعد لقب القديس يوحنا الدمشقي. St.John Damascin.

(3)

الأمرُ الجامع بين أولئك الثلاثة، أنهم توالوا، واحداً بعد واحد، على رئاسة وإدارة وجباية الخراج لكامل المنطقة الشاميّة الواسعة الغنيّة. ومن ثَــمّ تسديدها طوعاً بأكملها إلى خزانة الدولة الرّوميّة في "القسطنطينيّة". وهذه عند العارف خسارةٌ مزدوجةٌ للبلد. فهي تحرمه من جزءٍ لايُستهان به من الكتلة النقدية الدّائرة بين أيدي الناس إلى الأبد، دون عوضٍ أو بديل. وتحرم الدولـــــةَ وأجهزتها مـــــــن التمويل الضروري المشروع لعملها، الذي تكسبه من الضرائب. كما تحرم البلد كلّه من بعض ماليّته إلى الأبد دون عوض أو بديل. بحيث يغدو هذا التدبير نمطاً من الإفقار العامّ، لأنّ كل إنتاجه الفائض عن الضرورة للناس يذهب هباءً إلى غير رجعة دون مقابل. كلُّ ذلك بسبب المعاهدة التي عقدها الخليفة عمر مع الروم. التي سنقفُ عليها بعد قليل.

(4)

ومن المعلوم أن إنفاذ المعاهدة والعمل بها بهذا النحو، هو عملٌ

كبيرٌ واسعٌ مُعقّد. يقتضي جهازاً كبيراً من المحترفين، يُشبه في حجمه حجمَ دولةً صغيرةً، عناصرها موزّعة في مختلف أنحاء الدولة الأُمّ. عملهم الإحصاء والكشف على كافّــة مواطن الإنتاج في المنطقة، من مواشي ومزارع ومصانع ومُحترَفات، ومن ثَمّ استيفاء الضريبة المفروضة عليها. لتأخذ طريقها طوعاً ونهائياً إلى الخزانة المركزيّة في العاصمة الرومية. أي أنهم، ويا للعجب العجّاب، كانوا يسدّدونها إلى الخزانة العامرة الثّريّة للإمبراطورية الروميّة في عاصمتها المركزيّة "القسطنطينيّة". وهذا أمرٌ شــاذّ. لسنا نعرف له مثيلاً. لا شك أنه سيُثير عند القارئ الحصيف سؤالاً كبيراً. كيف يحصل ذلك في ظلّ أنّ الحكم في المنطقة الشاميّة الشّاسعة والغنيّة كلّها كان للمسلمين. الوالي عليها إنّما تُعيّنه السُّلطة المركزيّة في العاصمة المركزيّة "المدينة". وكذلك المؤسسات العسكريّة الأمنيّة فيها. ثم يكون خراجُها الكبير، الذي قيل أنّه كان هائلاً، يبلغ خمسة أطنان ذهباً، ينتهي إلى خزانة دولةٍ أُخرى عدوّة.

(5)

والغريب أنّ مصادرنا الخبريّة الأساسيّة وأبحاث مؤرخينا كافّة، تصـــدفُ عن الذّكــر الصريح لذلك الوضع الشّــاذّ، وكأنّـــــه غير موجود وعُمل به لبضع سنوات. مع أنّه ينبغي لغرابته أن يُغري الباحث بأن يطرح سؤالاً عن سببه على الأقلّ. ربما لِما في الجواب عنه من نيلٍ

ضمنيّ من مصداقيّة الدولة الأُموية السفيانيّة الحاكمة. بل بالاعتبار الأَولى، لأنّه ينالُ من جهاز الدولة الإسلاميّة في عاصمتها المركزيّة. لأنها، بشخص رئيسها الأعلى (الخليفة)، هي التي سعت إليه ووقّعت عليه كما سنعرف.

وعلى كلّ حال، فإنّه ما من شــــكٍّ إطلاقاً بوجود ســــببٍ خاصٍّ لـــــهذا الوضع. وإلا لماذا وكيف حصل. بالرغم من شذوذه.

(6)

السببُ، كلّ السبب، هو المعاهدة السّرّيّة التي عقدها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مع الدولة الرّوميّة. بعد مفاوضاتٍ طويلةٍ مكتومةٍ مع مبعوثيها. حيث الخليفة قَدِم بنفسه إلى "الشام" على بُعد الشّقّة وسنّه العالية. تحت شعارٍ علنيّ، وظيفته التغطية على السبب الحقيقي الذي دعاه للقدوم. هو الزّعم بأن سبب قدومه هو معالجة آثار انتشار مرض الطاعون، المعروف بطاعون "عمواس"، حيث ظهر الوباء، ومنها انتشر في المنطقة المجاورة. وأقام في منطقة "الجابية" بضع أشهر، بعيدا عن تجمّعات السُّكّان، حفاظا على السرّيّة المُطلقة للمحادثات. أثناءها نظّم بنفسه محادثات مع مبعوثين خاصّين من جانب الدولة الروميّة. انتهت إلى ما وصفناه من مصير الخراج.

(7)

والذي يبـــــــدو لنا من بعــــض المُلابســـــات، أن يزيد بن أبي سفيان، الأخ الأكبر لمعاوية، والذي كان يومذاك الوالي الفعلي على "الشام"، قــد راح ضحيّة العمل على هذه الخطّة السياسيّة للخليفة. لا لسببٍ إلا لأنّه استنكف الضلوعَ في هذه السياسة البائسة، وأبى ذلك الحلّ الخانع الذليل كلّ الأباء. لأنّه لم يترك له، باعتباره والياً مطلق الصلاحيّة على كل "الشام"، إلا أن يكون شـــــاهدَ زورٍ على ما يحصل. له أن ينظر بعينيه فقط، دون أن يكون له أدنى حقّ أو فرصة في التدخّل في هذا الشأن الأساسيّ من شؤون أجهزة الدولة، التي يُفترَض أنه يرأسها. على الأقلّ لأنه ما من مالٍ تحت يده. لأن كلّ سهم الدولة من الإنتاج العامّ (الخراج) يذهب إلى خزانة دولةٍ أُخرى.

هنا سجّلَ التاريخ السُّلطوي، الحاضر دائماً لتغطية أو تمويه عوار السلطة الحاكمة، أنّ المسكين مات بطاعون "عمواس" الجارف. مع أنّ الرجل كان حياً بالتأكيد يوم قدوم عمر، الذي حصل بعد انجلاء الوباء، وارتفع الخطر على حياته.

أمّا أخوه الأصغر معاوية فقد كان من نمطٍ آخرٍ من الرجال، مختلفٍ كلّ الاختلاف عن أخيه الأكبر، من حيث الأنَفَة والنّخوة وعزّة

النفس. بحيث لم يكن يُبالي بأي شيء في سبيل أن يصِلَ إلى المنصب، حتى على حساب دم أخيه المسفوح. فجيء بـــــــه بسرعة إلى المنصب.

(8)

وممّا يُكملُ هذا المشهد، أن عمر، بعد عوده إلى "المدينة" من رحلته الشّاميّة المشؤومة، طفق يُشيد بنفسه علناً بمعاوية، بمناسبةٍ وبدونها، كما لم نــرَه يفعل من قبل. وخصوصاً بالتنويه بقوّة حضوره وهيبته في منطقة ولايته الجديـــدة. إلى درجة وصفه إياه بـ "كسرى العرب". وما ندري ما الذي رآه الخليفةُ في معاوية من صفات كسرى والكسرويّة. خصوصاً أنّ الرجل كان جديدَ عهدٍ بالسُلطة، بأيّ درجةٍ من درجاتها. بحيث لم يكُن قد حان الأوان بعدُ لاكتشاف مواهبه وكفاءاته الخفيّة.

لكنّ تسويغ المجيء به هو بالذات من قِبَل الخليفة، الذي كان ما يزال في المنطقة، إلى المنصب هو الذي اقتضى منه أن يُتوّجَه بتلك الصفات الفارغة.

ومن الواضح أنّ كل هذه المهزلة الإعلاميّة كانت بخدمة التغطية المجّانيّة على سياسة الخليفة الذليلة، وغير المسبوقة المثال، إن تجاه الرّوم وإن تجاه غيرهم.

(9)

والحقيقة أنّ ما كان يُقلق الخليفة في حركته السياسيّة غير المألوفة هذه، هو علمُه أو خشيته من أنّ الدولة الروميّة الجبّارة كانت ماضيةً في الإعداد والاستعداد لليوم الموعود، الذي ستثأر فيه لهزيمتها المُذلّة على أيدي الفاتحين المسلمين في معركة "اليرموك" الكبرى. بالرُغم من أنّ الدولة الروميّة المهزومة كانت يومها قد اعدّت للمعركة أفضل إعداد. واضعةً نصْبَ عينيها أن تحتفظَ بدرّة تاجها "الشام". ولذلك رأيناه قـــد آثــر أن يمنحها كامل خراجه الكبير. في مقابل أن تتعهّد بأن لا تحاول لا الآن ولا في المستقبل استعادة "الشام" بالقوّة المُسلّحة.

(10)

المهم أنه بنتيجة المفاوضات تنازل عمر للروم عن كامل خراج "الشام". في مقابل أن يكفَّ هؤلاء عن محاولة استعادة أرضه بالقوة. ولماذا لا يفعلون، مادام كامل خراجها الكبير سيأتيهم عفواً ومجاناً. وبالفعل توقّف الروم مذ ذاك عن كل محاولة لاستعادة "الشام" عسكريّاً. لينالوا في المقابل الخراج الكبير الذي يُجبى من كل أرضه. وفي هذا السبيل عيّنوا منصور بن سرگون الأول ممثّلاً لهم في كل المنطقة. وظيفته ضبط الخراج وجبايته، ومن ثَمّ إيداعـه خزانــة "القسطنطينيّة". الأمر الذي جعل منه، ثم من ولده سرگون من بعده، شـبه دولة مستقلّة،

أقوى بكثير من الدولة الإسلاميّة الحاليّة. التي باتت تفتقر إلى الحدّ الأدنى من المورد المالي. إلى أن وصل الأمر إلى ثالثهم منصور الثاني، الذي ورث منصب أبويه. لكننا رأينا من هذا نمطاً آخر من المسؤولين. ليس يكتفي بمثل عمل ابويه. بل سنراه يصرف جهده أيضاً إلى شوؤنٍ أُخرى أكثر أهميّةً عنده، هي التي ستُكسبه في الدنيا فيما بعد، عند المسيحيين قاطبة حتى اليوم، لقب القديس يوحنا الدمشقي.

والحقيقة أن تلك المعاهدة، بتداعياتها المتواصلة تباعاً فيما بعد، هي التي سيستغلّها منصور لمشروعاته الأكثر دهاءً بكثير ممّا كان يمكن أن يحصل من دونها. أي حتى لو تُرك الأمر للروم ليفعلوا ما يشاءون. بل حتى لو انهم نجحوا بالفعل في استعادة "الشام". لأن المعاهدة ترتّب عليها ما لا يُحصى من الكوارث. بعضها ما تزال آثارها السيئة عالقةً حتى اليوم.

(11)

الحقيقة الأدهى بكثير من ضياع الخراج وآثاره. والغائبة تماماً عن أعمال أشباه المؤرخين من المسلمين، وتجاهلَها ذلك الكاهن فيما قال، أن منصور بن سرگون الثاني، الذي عُرف فيما بعد بالقدّيس يوحنّا الدمشقي، قد تجاوز بكثير سُلطاته المُتّفق عليها في شأن الخراج، إلى درجة أنّه توصّل إلى حُكم المنطقة الشاميّة حُكما مُطلقاً مدة أربع أو

خمس سنوات. تحت غطاءٍ من (خليفةٍ) هزيلٍ من صُنعه وتمكينه، سمّاه هو "يزيد بن معاوية". وظّفها في عمل كلّ ما يُمكنه في هجومٍ مدروس على الإسلام ونبيّه وقرآنه.

(12)

والغريب أن كلّ مصادرنا وأعمال باحثينا قديماً وحديثاً تسكت عن ذكر أدنى إشارة إلى أعماله. مع أنّها كانت تجري علناً، دون أدنى تحفّظ. اللهم إلا من بعض إشارات ضعيفة، نجدها في بعض الكُتُب الأُمهات، لن نضيّع الجهد في سردها. وإلا ما أتانا به كاتب عراقي اسمه رشيد السّراي. وذلك في مقالةٍ له حملت عنوان "القديس يوحنا الدمشقي والإساءة للرسول" (ص). لم نرها منشورةً إلا على موقع الكاتب على الشبكة العالميّة https:Kitabat.com.. وصف فيها خلافة مَن اسمه (يزيد)، دون أن يلتفت إلى أنّ هذا ليس ابناً لمعاوية في الحقيقة، بأنّها قد تمّت بالقهر والغلَبَة، دون أن يُبيّن كيف. لأنه لم يقع على النصّ الهامّ والفريد لابن عساكر في هذا الشأن، في كتابه (تاريخ مدينة دمشق:٦٥/٤٠٥). كما أشار إلى أعمال منصور الشنيعة بحق الإسلام ونبيّه دون تفصيل. وبذلك أتت ملاحظاته فاقدة المعنى،

بالنسبة للقارئ الخالي الذهن من خلفيّة ومعنى ومغزى تلك الوقائع. على الرغم من أن هذه النتائج التي وصل إليها الكاتب تدلّ على

حسٍّ تاريخي مُرهَف، يستحق أن يُغبط عليه. بحيث أوصله إلى نتائج صحيحة، استناداً إلى مُلابسات خفيّة ودقيقة لم يبيّنها. وإلا المقالة الضّافية التي حرّرها المؤرّخ العراقي المُبدع الدكتور جواد علي (١٩٠٧ــــــ ١٩٨٧). ونشرها في مجلّة (الرسالة) العراقيّة، العدد الثاني من السنة الثالثة. وفيها وصفٌ شاملٌ لأعمال منصور. وخصوصاً في الطّعن على الإسلام. بينما رأينا غيره قد ملأوا الصحائف في بيان (شرعيّة) خلافة ذلك اليزيد. إمّا للبيعة المزعومة له في حياة(أبيه) معاوية تارةً. أو بعدها تارةً أُخرى. أو بتوليته إيّاه بكتابٍ منه. وكلّ ذلك لا أصل له. ومن الواضح أنّ هذا الاختلاف الكبير في تسويغ خلافة الرجل بذاته ينطوي على دليلٍ قطعيّ على بُطلانها جميعها.

(13)

والحقيقة أنّه، أعني منصور، أثناء هاتيك السنوات، عمل كل ما بوسعه على تهشيم الإسلام. ومن ذلك إنكاره نبوّة محمد (صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) على رؤوس الأشهاد، في مجالس علنيّة جامعة كان يعقدها في "دمشق"، ليكون هو المُتكلّم الوحيد فيها. دون مناقشة أو فرصة لأحـدٍ للـرّدّ أو المناقشة. فيها طفق ينعته علناً بأشنع الصفات من قتلٍ ذريعٍ وشهواتٍ جنسيّة. وبالقول أنّه تأثّر في ادعاء النبوّة براهبٍ آريوسي، التقى به أثناء رحلته إلى "الشام". كما أنّه، حسب زعمه، تعرّف بالصدفة على العهدين

الجديد والقديم (كيف؟ مع النبي لم يكُن قارئاً). منها استقى معلوماته التي أدرجها في القرآن.

إنّ منصور هو أوّل من قال إنّ الإسلام ليس إلا هرطقة مُنحرفة عن المسيحيّة. يعني أنّ الإسلام ليس ديناً من الأديان. بل هو في الأساس المسيحيّة نفسها، لكن بعد أن جرى تحريفها عن حقيقتها، وأُضيف إليها ما ليس منها. وذلك في كتابه (المُهرطقون) De Hoeresbius.

أمّا التحريف بزعمه فهو بالقول إنّ السيّد المسيح (عليه السلام) ليس إلا بشراً نبيّا، ونفي صفة الأُلوهيّة عنه. وأمّا الإضافة فليست إلا نُبوّة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، بوصفها النبوّة الخاتمة بعد السيّد المسيح. وهذه المقولة ما تزال تتردّد دائماً في كلّ نقدٍ عدائي للإسلام. مع أنها تدلُّ على جهلٍ فاضحٍ بتاريخ المسيحيّة بالدرجة الأُولى.

(14)

ذلك أنّها في مقولتها هذه ليست تأخذ بعين الاعتبار أنّ المسيحيّة كما هي اليوم لم تكن قد نشأت إبّان زمن النبوّة.

كيف يُقال إنّ الإسلام هرطقةٌ مسيحيّة، مع أنّ المسيحيّة وتأليه الثلاثة قد نشأت وانتشرت في الشرق بعد الإسلام بقرون. وكذلك ما سُمّي

بـ (الكتاب المقدّس). بل الأَولى لمَن يعقل ويعرف، أن يقول إنّ المسيحيّة هي هرطقةٌ نصرانيّة.

ذلك لأن المسيحيّة، كما هي مُـذ ذاك، إنّما بدأت في "أوروبا الغربية" ومنها انتشرت بسرعة في الشرق. وذلك بدمج الوثنيّة الأوروبيّة وشعاراتها وتقاليدها بعناوين نصرانيّة. كان الدُّعاة النصارى في الغرب قد حملوها معهم من الشرق. فأنتج المزيجُ من الاثنين ما سُمّي المسيحيّة. لِما لشخص المسيح من موقع إلهيٍّ جديدٍ خاصٍّ فيها. لم يكُن لـــــه ولا لغيره من قبل في النصرانيّة. التي تمسّكت بالتوحيد، واتّبعت السيّد المسيح (عليه السلام) ولم تعبده.

بهذه الوسيلة نجحت المسيحّيّة النّاشئة بسهولة في جذب الإنسان الغربي، الذي تربّى على الوثنيّة من قبل. فلم يجد أدنى صعوبة بالالتحاق بالدين الجديد، المُركّب من النصرانيّة القادمة والوثنيّة الرّاسخة الغابرة. ذلك لأن الآلهة المتعدّدة والرموز، مثل الجرس الناقوس لدعوة الناس للصلاة وغيرها، وشجرة عيد الميلاد، ورمز الصليب... الخ. ماتزال هي هي نفسها بالنسبة إليه، والذي تغيّر إنما هي الأسماء فقط. وبالنتيجة لم يكن الناس في المجتمع الغربي في حاجةٍ إلى كبير جُهد في الانتقال إلى المسيحيّة.

(15)

والحقيقة أن منصور نفسه، هو الذي وليَ نقل هذه المسيحيّة من مَنشئها في "أوروبا" الغربية إلى الشرق. ليقود حركة دحر النصرانيّة العريقة فيه إلى الأبـد. وذلك على الرغم من أن إمبراطور الروم في "القسطنطينيّة" قد عارض بقوّة هذا الاتجاه. ربما لأسبابٍ سياسيّة. تمنح المسيح وكُهّانه المقام الأول في المجتمع. طبعاً على حساب الموقع الأوّل السّامي المُطلَق السُّلطة الذي يحتلّه الامبراطور.

لكن المعركة بين الاتجاهيَن، أي النّصرانيّة الأصليّة والمسيحيّة الطارئة، جرت تحت عنوانٍ مُضلّل، يصعب على غير الخبير المُختصّ أن يقرأه القراءةَ الصحيحة. ذلك أنّ عمل منصور على نشر المسيحيّة في مقابل النصرانيّة، تضمّن واقتضى نشر الإيقونات في أماكن العبادة. أي صُوَر وتماثيل المعبودين والمقدّسين الجُدُد في العقيدة المسيحيّة. ومعاملتها كمعاملة الإنجيل نفسه. تحت شعار إنّ تكريمها ليس موجّهاً إلى مادة الصورة، بل لِما تُمثّله. فما كان من الإمبراطور ليو الثالث من جانبه إلا أن أصدر مرسوماً بمنع تعليقها في الكنائس والمنازل والأماكن العامّة. وفي المقابل أصدر منصور ثلاثة كُتُب في أنّ تكريم الإيقونات ليس من الهرطقة. وشجب المرسوم الإمبراطوري بشدّة. وقد لعبت

كتاباته هـذه دوراً هامّاً فيما بعد في مجمع "نيقية"، الذي انعقد لحلّ مشكلة الإيقونات نفسها. انتهى إلى إقرارها.

(16)

هكذا، وتحت تلك العناوين، جرت المعركة بين الاتجاهين. إلى أن انتهت بنصرٍ مؤزّر لمنصور وللمسيحية الجديدة. وأنهت بقايا النصارى، الذين فرّوا بإيمانهم إلى أماكن بعيدة معزولة في نواحي "فلسطين"، قريباً من شواطئ "البحر الميت". عزلوا أنفسهم فيها حتى تفانوا وانتهوا.

وقد عُثر قبل مدة على مجموعات من تسجيلاتهم الخطّيّة الأصليّة هناك. التي أفنوا أعمارهم في تخطيطها. حفظتها الكهوف الجافة التي قطنوها في أواخر عُمرهم وعمر النصرانيّة. لم تحظَ بالاهتمام الكافي من الباحثين لأسبابٍ غير خفيّة.

(17)

وممّا يجـدرُ بنا أن نُضيفه في هذا السياق، أن منصور بلغت درجة اغتراره واعتداده بنفسه وبأفكاره، أنّه عندما كان صاحب الكلمة الأُولى في "دمشق" سيّاسيّاً وماليّاً، منع أو أظهر ضيقه بتسمية المسلمين أنفسهم بهذا الاسم. ودعا إلى تسميتهم بـ "الإسماعيليين". نسبةً إلى جدّ العرب إسماعيل، فيما يُقال. أو بـــ "الهاجريين" نسبة إلى هاجر جارية إبراهيم

وأُمّ إسماعيل. على أساس أن إسماعيل هو ابن إبراهيم لكن بالجسد فقط. خضوعاً للشريعة القبائليّة. أمّا إسحق من ساره فهو نسل الوعد الإلهي لإبراهيم وامرأته بفيضٍ من رحمته. وهذا من الأفكار التوراتيّة، التي سحبتها المسيحيّة وكتابها المقدس معها، وهي تتطوّر وتميّز نفسها عن النّصرانيّة. ولم تكن ملحوظةً في هذه.

(18)

كما كان منصور يعقد الجلسات الحافلة في قاعة "قصر الخضراء". الذي كان معاوية قد أنشأه ليكون المركز الرئيسي لأعمال دولته. ويُلزم حتى أصحاب العمائم واللّحى بحضورها. ليُصغوا صامتين إلى سيّد الجلسة، وهو يتفنن في النّيل من الإسـلام ونبيّـه وكتابـه. وقد سجّل ما كان يفتريه في تلك الجلسات في كتابين له. أحدهما الذي سمّاه (إذا قال لك العربيّ كذا فقُل له كذا). والثاني (المُهرطقون المائة). الذي خصّصه لإحصاء مائة شخص هم عنده المُهرطقون، أكثرهم من النصارى. كما أنّ منهم نبيّنا (صلى الله عليه وآله وسلم) طبعاً. والكتابان موجودان حتى اليوم. والأوّل منهما تُرجم إلى لغاتٍ كثيرة. وما يزال متداوَلاً تداولاً واسعاً في الأوساط الكهنوتيّة. على الرغم ممّا فيه من صفاقةٍ وجهلٍ قـلّ نظيرهما. إلى جانب كُتُبٍ أُخرى له متعدّدة. هي(ينبوع المعرفة) الذي يتألف من ثلاثة كُتُب هي:

- (الفصول الفلسفيّة) الذي قدّم به تفسيراً لاهوتيّاً مسيحيّاً لفلسفة أرسطو. اعتمد فيه الأُسلوب الجدلي.
- (المُهرطقون) وقفنا عليه أعلاه.
- (معرض الإيمان القويم) الذي يُعتبر عند المسيحيين أهم أعماله.

و (الإيمان الأورثوذكسي) و (مقدمةٌ في العقائد المسيحيّة) و(ضدّ النسطوريّة) و(مقدمة في العقائد المسيحيّة) و (في الإرادتيَن)، الذي ردّ فيه على العقائد التوحيديّة التي أعلنها الإمبراطور هرقل. في مقابل التثليث الذي استورده ونشره منصور.

ومن هنا، فإنّ مؤرّخاً من درجة الدكتور فيليب حتي، وصف منصور بأنّه "أبرز مفاخر الكنيسة السوريّة في ظلّ الأُمويين". وذلك في كتابه (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين). وهو وصفٌ يدلّ على أنّه لم يطّلع بما فيه الكفاية على كلّ حقائق سيرة منصور الحافلة. وفي المقابل لم يلاحظ أنّه لم يكُن مجرّد "جليس للأُمويين"، كما اقتصر من أوصافه ذلك الكاهن. الأمرُ الذي يدلُّ على أن الاثنين كلاهما اندفعا وراء منظورهما الشخصي للرجل.

(19)

تلك الخطّة المعقّدة التي اعتمدها منصور. ابتداءً من أنّه مُبكّراً لم يِكتفِ

بعمله الكبير في الخراج، الذي كان بانتظاره، ليكون كأبويه من قبله، خبيراً ومسؤولاً ماليّاً، مهمّته ضبط الخراج، من جبايته حتى استقراره في خزانة الدولة في "القسطنطينيّة". بل كان قد قصد "روما" مُبكّراً، يوم كان الانقلاب الكبير من الوثنيّة إلى المسيحيّة عالقاً فيها على أشدّه. ليخرجَ منها كاهناً مسيحياً كامل الصفة. ثم أنّه ما أن استقرّ به المقام في "دمشق" بعد وفاة أبيه ومعاوية تباعاً، حتى اصطنع خليفةً زوراً سمّاه هو (يزيد بن معاوية). فقط ليكون أُلعوبــةً بين يديه لوقت الحاجة. مع أنّ هذا لم يكُن ابناً لمعاوية بالتأكيد. ولم يعرفه ولم يلتقِ به طيلة حياته. الأمرُ الذي كان هو يعرفه جيّداً بالتأكيد. بينما انصرف إلى ما قد وصفناه من التهشيم العلني للإسلام، بما تحت يده من وسائل.

(20)

الخطّة بتسلسلها الدقيق تطرحُ علينا سؤالاً كبيراً:

ما كان الغرض النهائي الذي كان يرمي إليه منصور من وراء هذه الخطّة الدقيقة الشّاملة المُتدرّجة؟

هل كان سيكتفي بشفاء غليله من الإسلام لفظيّاً وكُتُباً، بما كان يصدر عنه علناً من أقوال وكتابات وأعمال. عملت بإصرار على تقديم الإسلام تقديماً عدوانيّاً، بنحوٍ غير مسبوق. مع أنّه كان يعيش بين أكناف

المسلمين، ويتمتع بثروتهم، ويعمل لهم مبدئياً، بمعنىً من المعاني. كنّا قد وقفنا على ما يكفي منها؟

في الجواب نقول: لماذا يقف عند تلك الحدود، وهو الذي بات يملك القدرة سياسيّاً وماليّاً على عمل كلّ ما يشاء ويحلو له في كلّ "الشام". يوم كان البلدُ في حالة عطالةٍ سياسيّة كاملة. تفتقر إلى القيادة الصالحة. بينما تحولُ العطالةُ نفسها بين الناس وبين الاعتراض على هذه الأعمال البالغة الوقاحة التي تصدر.

هـذا بالإضافة إلى أن أكثر سكان "الشام" كانوا يومذاك من النصارى، الذين كانوا يتحوّلون بسرعة إلى المسيحيّة، بقيادة وتوجيه منصور نفسه كما عرفنا. بينما كان المسلمون محصورين في مدينتَي "دمشق" و "حمص". بالإضافة إلى جماعاتٍ كثيرة متفرّقة هنا وهناك. أكثرهم من المهاجرين الشيعة الجُدُد، القادم أكثرهم من عشّ التّشيّع "الكوفة ". بدايةً من أثر تنازل الإمام الحسن (عليه السلام) عن بيعة الناس له بالخلافة. ثم ما نزل بهم من اضطهاد، بعد انفراد معاوية بالحكم. نعرف أنّه استمرّ ناشطاً بقوّة إلى ما بعد "كربلا" وتأثيرها.

أولئك المهاجرون الشيعة انتشروا في قُرى وبلداتٍ كثيرة على الطريق الطويل، الممتدّ من مجرى نهر الفرات عند "الرّقّة" إلى قريب "دمشق". وهو الطريق الذي كان يُسمّى "الطريق السُلطانيّة". هم الذين

سيكون لهم أثرٌ إيجابيٌّ دائم في المستقبل قريبه وبعيده. بنينا عليه كتابنا (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا).

ثم أنّ ممّا لا ريب فيه، أنّ ممّا كان يُثلج قلوب تلك الأغلبيّة النصرانيّة المُتمسيحة في كل "الشام"، أن يعودوا مواطنين تابعين للدولة الروميّة الجبارة، ويتحرّروا من وضعٍ شبيهٍ بوضع أهل الذّمّة. الأمرُ الذي كان منصور قادراً على فرضه دون صعوبة. بما كان طوع يده من سلطات. ليس لأحدٍ غيره بعضها.

(21)

ولا يظنّنّ أحدٌ أن الوضع السياسي في "العراق" و"الحجاز" كان أفضل.

كان "العراق" يومذاك يعني سُكانيّاً "الكوفة" و "البصرة" ليس غير. أمّا "الكوفة" فقد كانت مدينةً مُضطهدَة على يد معاوية. استنفدت طاقتها البشريّة والنفسيّة على القتال، خصوصاً يوم "صفين". فضلاً عن الاضطهاد، بعد تنازل الإمام الحسن (عليه السلام) عمّا كان له من بيعةٍ صحيحةٍ في أعناق الناس، وأعاد الحقّ إلى الأُمّة. فلجأ سكانها إلى الهجرة. اليمانيّون من همدان وربيعة غرباً باتجاه "الشام". والهاشميون

باتجاه المنطقة الجبليّة من "إيران". أمّا "البصرة "فقد كانت دائماً مدينةً فتنويّة. معدومـة الحسّ السياسي البُنياني. ولا تتحرك إلا في الفِتَن.

وأمّا "الحجاز" فقد كان دائما بستان قريش، خصوصاً بنو أُميّة منها.

ومن آثار هذه الصيغة السكانيّة ـ الفكريّة السّائدة فيه، ذات العلاقة بتركيبته السكانية، أنّ الفكر الرسمي المُسيطر هناك حتى اليوم، والمدعوم من السُلطة الدينيّة القويّة هناك، ما انفكّ يقول إن يزيد، (هذا اليزيد) أيّاً كان هو، ومهما فعل وارتكب، خليفةٌ شرعيٌّ، بويع بيعة صحيحة. بحيث أن مجرّد الخروج عليه من أيٍّ كان، يكفي بذاته لأن يُخرج المخالف من الملّة. ويوجب على المسلمين جهاده وقتله.

هنا علينا أن نلاحظ، أنّ هذه الذّهنيّة نفسها هي استمرارٌ لجَماع وتوجهات نمط التفكير والمرامي التي كانت سائدةً في زمن البحث.

(22)

ومن مظاهر هذا النمط من الحال والذّهنيّة، أنّ كل عناصر التاريخ التي نراها صحيحة، التي بسطناها وسنبسطها في هذا البحث، هي مُركّبة من أخبارٍ جمّة، أوردَتها كُتُب (التاريخ) الكبرى. وبالخصوص كتابا الطبري وابن الأثير. ولكنها إما أن تكون مغلوطة غلطاً فاحشاً. بحيث

ننبذها وينبذها القارئ العارف عفواً. وإمّا تكون مُرفَقَةً بملاحظاتٍ، تصفُ كلّ تلك الأخبار صراحةً بالضّعف أو الشذوذ، لا لغرض إلا أن لا تستفزّ السُلطة. والنتيجة في الحالتين واحدة. هي تعطيل كل تلك الأخبار على كثرتها. ولذلك فإنّ على الباحث، الذي يعملُ اليوم على تركيب القصّة الحقيقيّة، أن يحكم على تلك الأخبار باعتبار موضعها المناسب من القصّة التي يعملُ على تركيبها. وليس لمجرّد ورودها في تلك الكُتُب.

وليس ذلك بالنسبة لنا بالأمر الغريب علينا. بل هذا هو تاريخنا السُّلطوي غالباً بكامل مواصفاته. وهبَ نفسه للسلطة وحدها. بحيث لا تجدُ عنده إلا ما يُرضيها. أو على الأقلّ لا يستفزّها.

أمّا أخبار العباد فهي خارج اهتمام هؤلاء الأخباريين أشباه المؤرّخين. إلا عَرَضا وفيما نـــــدر.

وأمّا التاريخ الإنساني الحقيقي فقد تجده في أدبيّات كُتب التفسير والحديث والفقه، وفي الشعر. وخصوصاً في كُتُب السّيرة و البلدانيّات / الجغرافيا غالباً.

إنّ الدرس الكبير الذي نقرأه فيما يُسمّى كُتُب (التاريخ) عندنا، هو فقط حين تقع مادّتُها الأخباريّة في يـــد المؤرخ الحقيقي، الذي يعمل

على، ويستطيع أن يقرأها قراءةً تركيبيّة، مُستندةً في ظهيرها إلى استيعابه استيعابا كافياً لمواصفات الفترة التي يعملُ عليها. وما عَرَضَتْ كُتُب الأخبار من شؤونها.

(23)

بناءً على ذلك، إنّنا نحن الذين نعتقد أننا قد استوعبنا استيعاباً كافياً عناصر هذه الفترة، التي عنوانها استيعاب منصور لعناصر السلطة استيعاباً كاملاً في يده، لم يترك محلاً شاغراً لأحد. ـ بناءً عليه نسأل: إلى أين كان يُريدُ أن يصِل؟

ذلك الإنسان الذي بدأ جابياً للضرائب (الخراج)، بخدمة الدولة الروميّة. وعَبْرها وصل إلى درجة من الإغترار بما بات طوع يده من السُلطات والأموال، إلى درجة أنه طفق يتناول مقدّسات الإسلام في "دمشق" بالسوء علناً، بحضور الطليعة الدينيّة في "دمشق" وحُماتها. دون أن يقولَ له أحدٌ منهم "صه !" على الأقلّ. أو يردّ على أقواله بما يُناسب، وذلك أضعف الإيمان.

ذلك الحال هو الذي أهّل وأغرى منصور بأن يسيرَ بخطته إلى أقصى ما يرغب ويمكن.

(24)

في ظلّ هذه الحال نتساءل:

ما أو مَن الذي كان سيمنع منصور من أن يعقدَ جلسةً حافلة. (يرأسها) بالشكل (الخليفة) السّكّير. ليقفَ هذا ويقول من موقعه، مثلاً، أيها الناس أنا الخليفة أقول لكم، إنّ محمداً ونبوّته كان أمراً عارضاً في حينه وزمانه. استمرّ ما يزيد قليلاً على نصف قرنٍ من الزمان. وها هو قد انتهى الآن إلى غير رجعة. أو أيَّ كلامٍ من هذا القبيل، ممّا يكون قد لُقّنه. ومن المحتوم على الأثر، أن الأكثريّة النصرانيّة في "الشام" و"مصر" ستستقبل هذا الانقلاب المجّاني، بفرحٍ ما بعده فرح. وستُعلن تحرّرها الكامل من كلّ القيود التي كانت مفروضةً عليها تحت ظلّ الدولة الإسلاميّة.

(25)

نُعقّبُ هنا فنقول، لا ينظرنّ أحدٌ إلى هذا المشهد المُفترَض على أنّه خيالٌ في خيال. ما من فرصةٍ له لأن يغدو حقيقة. وأنّ ذلك غير معقول وليس ممكناً في ظلّ الانتشار الكبير القوي للإسلام يومذاك في أنحاء الدنيا.

أليس بعض ما يجري الآن في العالم الإسلامي. في أزمته الخانقة، التي عنوانها تأسيس دولة سمّوها باسمٍ ينظر إلى عُمق التاريخ اليهودي، وبالمنظور اليهودي: "إسرائيل". على أرضٍ عربيّة بعد طرد سكانها العرب منها بالقوّة. لقيت وما تزال التأييد والدّعم العالمي غير المحدود لها. دون أدنى اكتراث أو حُسبان لغضب مئات ملايين المسلمين المنتشرين في أنحاء الدنيا. وما في أرضه، سطحها وباطنها، من ثرواتٍ هائلة. فضلاً عن وجود الآلاف من أصحاب العمائم والّلحى، الذين سيسكتون سكوتَ أسلافهم أصحاب العمائم واللحى من قبلهم في "دمشق". بل حتى كان وما يزال منهم الضّالعون أحياناً وأحياناً في تأييد الانظمة السياسيّة التي تحكمهم، مع علاقاتها العلنيّة بالعدو. أو في ضلوعهم الصّريح في تحريك الفتن تحت عناوين مذهبيّة لمصلحة العدوّ، ـ أليس في كل ذلك دليل قاطع، على أن الجمهور وإمكانيّاته بذاته وبذاتها، مهما عظُمت، ليست أكثر من صفر، في غياب القيادة الرّشيدة الحازمة؟

أليس في تلك المعاهدة الذليلة التي عقدها الخليفة مع الروم، وسكوت كلّ النخبة الدمشقيّة وغيرها عن إدانتها. أو على الأقلّ نقدها والتنبيه إلى آثارها المباشرة السيئة ومخاطرها. ما يُشبه ما يُسمّى اليوم ظاهرة التّطبيع مع العدوّ، لِما فيه من مصلحةٍ له فقط. وسكوت أكثر النُّخبة الاجتماعيّة والدينيّة عن إدانته.

(26)

الحقيقة أن تلك المعاهدة حملــــت معها ذُلّ الإســــــلام إلى أزمانٍ طويلة. بما هيّأت للداهية منصور من أن يُعيد تشكيل المنطقة بكاملها، لِما فيه مصلحة خطّته الشّاملة. وفي رأسها تدمير العلاقة التكامليّة التي كانت حيّة بين النّصارى والمسلمين. على قاعدة توحيد الباري.

ذلــــك هو الـــدّاء الذي لم تُشــفَ منه المنطقةُ حتى اليوم. لولاه لربما كان النصارى المُوحِّـــدين جاهزين، أو على الأقلّ مُهيّأين، إلى الدخول السّهل في الإسلام. كما فعل نصارى "سورا"، أسلاف السّورانيين، الذين جرى تحريف اسمهم إلى (السّريان) كما لا يزال. الذين انضموا إلى سكّان مدينة "الحلّة" الجديدة. حيث أسلموا وحسُن إسلامهم. بل قدّموا العشرات من أجلّة الفقهاء. الذي أغنوا فقهنا بتراثهم الثقافي، الذي يضربُ عميقاً في طريقة تفكيرهم إلى التراث الثقافي للحضارة العراقيّة الباهرة. ممّا بيّنّاه في كتابنا (الحلّة ونهضتها ودور العلماء السّريان).

(27)

في هذا السبيل كان منصور منصوراً بالفعل على الجميع. انتصر

على الامبراطور الرومي النصراني المُوحّد في عاصمته العظيمة "القسطنطينيّة". وفرض عليها المسيحيّة المُثلّثة، الواردة من الغرب الأوروبي.

وانتصر على النصرانيّة المُوحّدة العريقة، التي كانت الرّاسخة في كلّ المنطقة. إلى درجة إنهائها إنهاءً كاملاً تقريباً.

وانتصر على كافّة المسلمين في "دمشق". نُخبتهم بالصمت حين وجب الكلام بالصوت العالي. وعامّتهم بالخضوع دون اعتراضٍ أو مناقشة.

أي أنّه أخضع الجميع إخضاعاً كاملاً لخطته ومقاصده.

الوحيد الذي انتصر على منصور، وأنهى حضورَه الطاغي إنهاءً تاماً، ودفعه في النهاية إلى خيارٍ وحيدٍ. هو النجاة بنفسه بعيداً وحيداً. شخصٌ واحد هو الإمام سيد الشهداء الحسين (عليه السلام) في "كربلا".

وبيان ذلك وكيف تمّ، سيكون موضوع الفصل التالي.

مع الإشارة إلى أنّنا قد سبق لنا بيان ذلك إجمالاً، بنحوٍ مختلفٍ بعض الاختلاف عمّا سنورده في الآتي. وذلك في كتابنا المطبوع

باللغتين العربية والفارسية (السرّ الكبير وراء كربلا). وذلك بفضل الاستمرار في البحث والتأمّل. الذي تعلّمنا أنّه يسمح للعقول أن تستمرّ في العمل على الموضوع بصمت. فإذا رجع الكاتب إليه رأى ما لم يكُن قد رآه من قبل.

بالمزيد من التحليل والتأمّل يمكن أن نقِفَ على تفصيلاتٍ جديدة. تقدّم المزيد من التأييد والاستيعاب للنتائج التي وصلنا إليها هناك مع بعض الاختلاف. فأثبتناها هنا.

**وللّه سبحانه الفضل أوّلاً وآخرا.**

# الفصل الثاني

## يوحنا ودوره في يومِ كربلا

## ويومِ الحَرَّة

(1)

ممّا لاريب فيه أنّ ذلك الذي وصفنا بعضَه، ممّا كان يجري في "دمشق" من سيئاتٍ على قدمٍ وساق، كانت أصداؤه تتردّد في أرجاء "الحجاز" وما والاه. لكنّ غياب التنظيم الاجتماعي والقيادة الشجاعة المسؤولة، وبالخصوص بسبب تأثير الأُسرة الأُمويّة، التي كانت ترى في "دمشق" جزءاً من حالتها السياسيّة، وإلى العاملين فيها بمثابة رعيّةٍ لها، حالت دون العمل بما يُناسب الرّدّ على أعمال منصور وفريقه.

وعلى كلّ حال، فإنّ أقوال أولئك القوم وأفعالهم السيئة في "دمشق"، بين مُفترٍ وصامت، كانت تجرى جهاراً وعلناً، دون أدنى تحفّظ. بل إنّهم ربما كانوا يهتمّون بنشر عناصر مشروعهم أوسع ما يمكن وأبعـد ما يكون. وذلك أمرٌ طبيعي لهم ولأمثالهم، كما هو واضح. ذلك أنّه ما من ريب في أنّ الذي ينشر، أو يؤدّي أيَّ عمل إعلامي فكراً أو عملاً معارضاً فيه لبيئةٍ اجتماعيّة، يهمّه أكثر ما يكون إسـماعُ صوته إلى أكبر عـــددٍ من التابعين للفكـــر العامل بالفعل بين الناس من حولهم.

ثم أنّ قريش، وبالخصوص أقوى بطونها وأكثرها ثراءً، بنو أُميّة، كانوا ينظرون إلى النظام السياسي الحاكم في "دمشق"، وما ومَن حولها من البشر، بوصفهم رعايا لهم ولدولتهم هم. ومن هنا كانوا لا يرون أيّ حيفٍ أو محلٍّ للّوم في المعاهدة المشؤومة التي عقدها الخليفة عمر مع

الرّوم. وإن هي قد أدّت، على الأقلّ، إلى إفقار أهل زهرة دولتهم الشاسعة. خصوصاً وأنّها، بالنسبة إليهم، قد حافظت على أن يبقى الموقع الأوّل لشخصٍ من بني أُميّة بشخص معاوية. ثم بشخص ابنه المزعوم يزيد.

(2)

حسناً، ولكنّ "الحجاز" وبعض ما والاه، لم يكن ساحةً مفتوحةً لقريش ولبني أُميّة منها وحدهم. بل كان غير بعيد عنها "المدينة"، التي كانت دائماً وما تزال الحصن الحصين للنبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ولأهل بيته من بعده. والآن لسيدها، وكبير أهل بيت رسول الله آنذاك، الإمام الحسين (عليه السلام).

إلى جانب أهل البيت كان هناك بقايا (الأنصار). الذين، وإن حيّدتهم "السقيفة" إلى الأبد، لكنّهم بقوا قوةً أدبيّة غير منكورة. لا يمكن للعامل في أي اتجاه، وللمؤرخ بالخصوص، أن يتجاهلها.

وحدهم أفّاكوا "دمشق" ورأسهم القديس يوحنا والذين أيّدوه، وإن بالصّمت المدفوع الثمن في الحدّ الأدنى، من النّخبة الدمشقيّة بأنواعها وصفاتها، هؤلاء جميعاً اشتغلوا وكأنّ الدنيا هي "دمشق" وما حولها فقط. وذلك من العمى، عمى القلوب.

الإمام الحسين (عليه السلام)، الصّامت حتى الآن عمّا كان يجري، خصوصاً أثناء السنتين البائستين الأخيرتين من حياة معاوية، لا ريب في أنّه كان يُدرك جيّداً تعقيد المسألة، بدخول منصور دخولاً قويّاً في الصورة السياسيّة للمنطقة. والمجيء بمَن سمّاه يزيد بن معاوية خليفة. بحيث أنّ الإمام بات في وضعٍ مُعقّد جداً. وبحيث أنّه حينما سيأخذ المبادرة. فيرفع صوته مُندّداً بما هو عالقٌ في "دمشق" علناً داعياً لاتخاذ الإجراء المناسب. سيجدُ من حوله مَن يعتبرون ذلك موجّهاً ضد مُمثّلهم الأعلى في السُّلطة. أي ضدّ الخليفة معاوية، حتى وإن يكن قد بات في حالة عجزٍ كاملة.

(3)

إنّ أيَّ حِراكٍ غير مدروس من الإمام ضدّ ما كان عالقاً، كان سينقل الأزمة حتماً إلى غير موقعها الحقيقي. أي من ما بين الإمام و منصور، باعتبار أنّ هذا هو المُحرّك الحقيقي للأحداث السيئة. إلى ما بين الإمام وقريش، خصوصاً الأُمويين منهم. باعتبار أنّ (الخليفة) الحالي هو في نظرها ممثّلها الأعلى في السُّلطة. الأمرُ الذي سيكون بمثابة هديّةٍ ثمينةٍ ومجّانيّةٍ لمنصور. ستُريحه حتما من أعباء المعركة الكبرى المُنتظَـرَة. التي ستدورُ منذ الآن حتماً بين قريش والإمام.

هذا التحليل لن نجِدَ نصّاً عليه طبعاً. لأنّ ما كان يحصل كان يدور بين وجوهٍ مُتنكّرة، هي يزيد الخليفة المُمثَّل عمليّاً بشخص منصور، والسّاكتين على أقواله وأعماله في "دمشق"، ومعهم "الحجاز"، من جهة. وبين الإمام ومؤيديه في "الحجاز" و "العراق". المأمورين منه بالخلود إلى الأرض، أي الامتناع عن أي موقفٍ أو عملٍ سياسي علني، من جهةٍ أخرى. لكنّنا نحن رأينا أنّه تفسير مناسب لسكوت الإمام الحسين (عليه السلام) مدةً طويلةً عمّا كان يجري في "دمشق" جهاراً نهاراً، على فظاعته وكذبه ووقاحته. بانتظار اللحظة والشروط المناسبة للعمل.

(4)

اللحظة المناسبة أتت مُتنكّرة بالرسالة التي وجّهها منصور، إلى الوالي على "المدينة"، أي الحاكم الفعلي على "الحجاز" وما والاه. وإن تكُن تحمل توقيع يزيد ظاهراً. الذي نعرفُ أنّه لم يكُن له من الأمر شــــيءٌ في الحقيقة. وفي الرســــالة يأمــــرُ الــــواليَ بأن يســـتدعي الإمام ويأمــــــره

بالبيعة ليزيد. تحت طائلة قتله فوراً إن امتنع.

تلك هي اللحظة التي نعتقد أنّ الإمام كان بانتظارها. بما تحمله من أمرٍ مستحيلٍ، أي المُبايعة، محفوفٍ بالتهديد الشخصي بالقتل.

من قبل هذه الرسالة كان القوم يعملون ضمن الشّرعيّة كما يعرفونها وكما يناسبهم: معاوية خليفةٌ شرعي بالتنازُل المزعوم له من الخليفة الشرعي عن الخلافة، الإمام الحسن (عليه السلام). و (ابنه) يزيد بالبيعة المزعومة له بتوجيهٍ من (أبيه)، يوم كان هو الخليفة الفعلي.

طبعاً هذه كلّها مجموعة من الأكاذيب التي خدعوا بها الناس. لكنها، في الأجواء السّائدة يومذاك، كانت تكفي لتكوين رأيٍ عامٍ في "الحجاز" وما والاه. يجعل من الإمام، عند أولئك المساكين المخدوعين، عاملاً ضد الشرعيّة.

أمّا الآن، خصوصاً بعد التهديد الشخصي الصريح للإمام الحسين (عليه السلام) بالقتل، فقد اختلف الأمر. بحيث جعله الآن في موقع الدّفاع المشروع عن النفس. من قِبَل إنسانٍ فاقدٍ للمصداقيّة عندهم. يعرفُ كلّ الناس سيرته وخصاله السيئة. لذلك اقتصر في جوابه على أُطروحة الوالي بقوله: "مثلي لا يُبايعُ مثله". يعني المثليّة في الخصال الشخصيّة السيئة المعروفة ليزيد. ودون أي نقاش لآليّة وصوله إلى منصب الخلافة. سواءٌ بالبيعة أو العهد أو فرضه فرضاً بنحوٍ انقلابي. أي أنّ موقف الإمام كان متأثّراً بالحذر الشديد من استفزاز العقل القرشي ـ الأُموي. بحيث يمكن أن تتحوّل المعركة إلى الاتجاه الغلط. الذي نعرف

جيّداً أنّه سيكون لمصلحة الخصم الحقيقي والمُحرّك الرئيسي لكلّ السيئات. وما هو إلا منصور / القديس يوحنا الدمشقي.

(5)

منذ تلك اللحظة بدأت الأُمور تتحوّل جذريّا. الإمام سارع إلى الخروج من "المدينة". مع أنّه، بما لديه من مكانةٍ عالية فيها لدى الأنصار والهاشميين وأكثريّة الناس، كان قادراً تماماً على حماية نفسه. لكنّه، بخروجه من المنطقة الأمنيّة الرئيسة للدولة في المنطقة، قد أراد أن يوجّه لها وللناس رسالةً سياسيّةً، تحمل معاني خطيرة. اقلُّها ما نُسميه اليوم العصيان المدني. الذي سيتطوّر بسرعة إلى سحْب اعترافه بالدولة من رأس. واللجوء بالمُقابل إلى حَرَم الله وأمنه "مكة".

هذا الموقف. أي سحب الاعتراف بالدولة وبشرعيّتها، حالةٌ فريدة، لا سابقة ولا لاحقة لها، في تاريخ علاقة الأئمة (عليهم السلام) بمختلف الدول، إن من قبلُ وإن من بعــد.

الإمام علي (عليه السلام)، مثلاً، حافظ على أطيب العلاقات مع الخلفاء الثلاثة الأُوَل. مع أنهم جميعاً كانت في أعناقهم البيعة العلنيّة له على أن يكون له الأمر بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

الإمام الحسن (عليه السلام) أعاد البيعة إلى الأُمّة، لكيلا يستحرّ القتل بالمسلمين، في حال إصراره على التّمسّك بمفعول البيعة الصحيحة له. ومع ذلك فإنّــــه لم يُعلن سحب اعترافه بالدولة التي يرأسها خصمه معاوية.

وكذلك الأمر بباقي الأئمة التسعة. الذي عملوا كل ما بوسعهم لتقوم بين كلٍّ منهم علاقة طبيعيّة مع الخلفاء المُتوالين. على ما بيّنَاه في كتابنا (سياسة الاستيعاب عند الأئمة)، مع أنّ بعض أولئك الخلفاء كان في الغاية من التفاهة وقلّة الحياء والتجاهر بالكبائر في سلوكهم الشخصي. خلافاً للصورة الشّائعة في كُتُبنا. التي تُظهر أئمتنا موضعاً وموضوعاً للاضطهاد من الخلفاء العباسيين بنحوٍ خاص.

المهمّ أنّ الحفاظ على الدولة بما هي دولة، وعلى الأُمّـة بما هي أُمّـة، كانتا عندهم جميعاً من القواعد الأساسيّة في سياستهم. ليس لأحدٍ أن يخرج عليها.

(6)

إذن ما السبب الذي جعل الإمام الحسين (عليه السلام) وحده، دون الكثيرين ممّن يتنكّرون ويُنكرون شرعيّة هذه الدولة، يُعلن أنّه لا يعترف بهذه الدولة. وأنّه سيقاتلها بسلاحه مهما تكن النتائج. التي لن تكون حتماً

لصالحه في العاجل. وهذا المعنى بالذات كرّره الإمامُ غير مرّة في خُطبه وأقواله.

الجواب يكاد يكون في غنىً عن البيان بالنسبة للقارئ اللبيب، الذي رافقنا فيما فات من البحث. ومع ذلك ففي البيان فائدة:

السبب ليس هو إلا إنّ هذه الدولة هي بالإدارة الكاملة لرجلٍ. من أبرز صفاته وسياسته العاملة أنّه ليس يُخفي، من موقعه الديني، ومن ما تحت يده من موقعٍ سياسي ومالي، أنّه مُنكرٌ شرسٌ للإسلام ديناً بكلّ المعاني. بل هو يعملُ صراحةً وعلناً، وبكلّ ما في طوع يده من سُلطةٍ كبيرة، على إنهائه بهذا النحو. بينما كلّ الساكتين عليه هم ضالعون في خطّته بمعنىً أو بغيره، وبدرجةٍ أو بغيرها. وعليه فقد بات من أقلّ الواجب على كلّ مسلم أن يُعلن مثل ما أعلن الإمام، منذ لحظة خروجه من "المدينة". حيث أعلن في وجهها ما نُسمّيه اليوم العصيان المدني.

(7)

في أوائل شهر شعبان ٦٠ ه / ٦٧٩ م استقرّ الإمامُ في "مكة". تسبقه أو تلحق به أخبارُ المجلس العنيف الذي عُقد في "المدينة". وطبعاً طفق الناسُ القلقون يقصدونه، حاملين أسئلتهم إليه، التي يُمكن تلخيصها بسؤالٍ كبير: والآن، إلى أين؟

ومع أننا لسنا نملك تسجيلاتٍ لأجوبة الإمام (عليه السلام) عن أسئلتهم المُلحّة. لكنّنا لا نشكّ في أنّ الأسئلة والسائلين معاً كانا يكبران حجماً ومفعولاً. مع اقتراب موسم الحج. وتدفّق عشرات الأُلوف من الحجيج إلى الحرم المكّيّ. الذين كان منهم كثيرون يقصدون الإمام ليسائلوه.

لكننا قبل أن نبدأ تتبّع تطوّرات الوضع، انطلاقاً من "مكة" باتجاه "العراق"، بوصف هذا التّتبُّع غايتنا الأساسيّة من بحثنا، ـ سيكون علينا أن نقفَ على ما يجري في "دمشق"، على يد وبمبادرةٍ من منصور. وإن يكُن ظاهراً باسم المُســـمّى يزيد منسوباً إلى معاوية، باعتباره عند أهل "الحجاز" وأهل "الشام معاً، الخليفة الشرعي دون خلافٍ واختلافٍ بينهم. أمّا بالنسبة للإمام، فالذي يبدو أنّ باب الخروج من المأزق عندهم كان محصوراً في "العراق". وبالخصوص في "الكوفة"، ذات التاريخ المجيد في نصرة أبيه من قبله. يوم اتخذها قاعدةً له. كما سيتخذها ابنه اليوم.

(8)

والظاهر أن أخبار ما كان يجري في "مكة" على قدمٍ وساق، على قاعدة إقبال الناس المُتكاثرين فيها على الإمام (عليه السلام). وهؤلاء جميعاً تقريباً من الحجيج، أي من غير أهلها، كما هو واضح. بعد أن أعلن خروجه على الدولة، التي كان مركزها ما يزال "دمشق". خصوصاً

وأنّها باتت في قبضة منصور علناً، ـ هو الذي جعله، أي منصور، يُسارع إلى إعلان دولته هو. كيما تبسط سلطتها على الرقعة الشّاميّة وهامشها الواسع. وتكون مهمّتها إدارتها بأكملها، في مُقابل مشروع الإمام الذي أعلن سحْب اعترافه بها.

وعليه فقد ابتدأ منصور في "دمشق" خطواته العمليّة باتجاه تكوين دولة / حكومة جديدة جاهزة للأحداث الكبيرة القادمة. تتناسب مع أفكاره ومراميه. سيكون عليها أن تتسلّم وتُدير كافة المرافق والسُّلُطات في المنطقة الشاميّة وتوابعها. بما يتناسب مع مشروعه ومشروع سادته الرّوم. الرّامي إلى استعادة المنطقة من الفاتحين العرب. ممّا كان كلّ ما فعله من قبل بمثابة تمهيدات ومهيّئات لهذه اللحظة. على الرغم من المعاهدة التي كان عمر قد عقدها مع الرّوم. أي أنّه كان يعمل على ضرب الصيغتين معاً. يضرب صيغة الفتح والفاتحين، التي جاءت بالعرب إلى السُّلطة. لمصلحة الرّوم في النهاية. ويضرب الإسلام ديناً مسيطراً، لمصلحة المسيحيّة المُثلّثة الجديدة، التي كان منصور قد استوردها من "روما"، على حساب النّصرانيّة الأصيلة في الشرق. التي كان الفاتحون المسلمون قد تعايشوا معها على أحسن ما يُرام. على قاعدة التوحيد لله تعالى.

(9)

أتت دولة منصور في "دمشق بالنحو التالي:

١- استبقى لنفسه طبعاً رئاسة ديوان الخراج. التي باتت تعني الآن عمليّاً الإدارة الماليّة العامّة للدولة في كلّ أنحاء "الشام". من جباية وصَرْف وخلافِه. أي أن الإجراء السابق الذي كان يُلزم الإدارة الإسلاميّة المحلّيّة بتسديد كامل الخراج إلى الخزانة في "القسطنطينيّة" على يد عُملائها، قد جرى التّخلّي عنه مؤقّتاً، فيما يبدو، لمصلحة مشروعٍ جديد أكثر دهاءً. يرمي إلى استعادة الروم لـ"الشام"، بالاستيلاء عليه استيلاءً كاملاً بالدهاء والألاعيب السياسيّة ودون حرب.

٢- جعل شُحنته، أي المُمسك والمسؤول عن ضبط الأمن العام، أي الذي قد يُشبه اليوم ما يُسمّى وزير الداخليّة، المدعو يزيد بن حميد بن حُريث بن بحدل الكلبي. الذي يبدو أنّه قريبٌ بعيدٌ لميسون بنت بحدل الكلبيّة، أُمّ يزيد الذي جعلوه الخليفة. ( تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٧٦ ).

كما جعل على حراسته شخصياً المدعو سعيد مولى كلب (؟).

٣- "وكان الغالب عليه [خاله] حسّان بن بحدل الكلبي" (اليعقوبي/نفسه). وعبارة "الغالب عليه" تعني ما يُشبه ما سُمّي فيما بعد منصب (الوزير) للخلفاء. أي الذي يتولّى كافة شؤون الحكم اليوميّة.

تاركاً للخليفة الشؤون السياسية. مع وقتٍ كافٍ للتّمتّع بضروب الملاذّ التي يُتيحها له منصبه العالي.

٤- ولّى إمرة "الجزيرة" / "الجزيرة الفراتية". المنطقة الشاسعة الموزّعة اليوم بين "سوريا" و "العراق" و "الأناضول". بالإضافة إلى مدينة "قنّسرين"، غير البعيدة عن "حلب بعدها، ولّى أمرها إلى سعيد بن مالك بن بحدل الكلبي. الذي كان مسيحيّاً صلباً. وبنى ديراً في "قنّسرين" فيما يبدو. ظلّ عامراً حتى أيام المسعودي في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد. وذكره في كتابه (أنساب الأشراف: ٥ / ٣٥٤).

(10)

هكذا يكون منصور قد شكّل الجهاز الإداري والأمني لمنطقة "الشام" وهامشها الكبير من ستة أشخاص. ليس منهم مسلمٌ واحد. بل جميعهم من أهل بلده "حوّارين". ومن أُسرة آل أو بني بحدل الكلبيين بالخصوص، التي منها ميسون أُمّ يزيد.

هذا عملٌ غبيٌّ طبعاً، غير قابلٍ، بأشخاصه وطريقة انتقائهم، باعتبارهم فقط من الأُسرة الكلبيّة، لأن يُكوّن نظاماً حقيقياً، يعملُ وفقاً لسياسةٍ تقتضي توفّر الخبرة لديهم. لذلك ظلّ حبراً على ورق، كما نقول اليوم. لأننا لم نشهد أيّ حضورٍ لأحدٍ من أولئك الخمسة، أي عداه هو،

في مواطن أعمالهم في الأحداث القادمة. ومع ذلك فإنّ لهذا التدبير مغزاه وأهميّته الكبرى من حيث أنّه يدلُّ على طريقة تفكير منصور الاحتوائيّة.

كما أنّ العمل نفسه يدلُّ على أنّه، أي منصور، كان يعـــني أنّه (مقطوعٌ من شجرة) كما يُقال. أي أنّه، على ما كان طوعَ يديه من سُلُطاتٍ واسعة، ليس لديه أو لم يكسب أحداً إلى جانبه من بعض رجال المسلمين، من ذوي الأهميّة، الذين يشاركونه بعض آرائه وتوجهاته السياسيّة، خصوصاً من ذوي العلاقة بالبيت الأُموي، أو من ذوي الحضور القوي في "دمشق"، في مُقابل البيت الهاشمي، الذي بات الآن، بشخص الإمام الحسين (عليه السلام) مصدرَ الخطر الأول على الإثنين.

(11)

والذي يبدو أنّ منصور كان مرعوباً أشـــدّ الرّعب ممّا لابُدّ أنه كان

أو بعضه يصِلُ إلى سمْعه. ممّا كان يجري على قدمٍ وساق في "الحجاز" حول الإمام الحسين (عليه السلام). تحت عنوان خروجه النهائي علناً على الدولة. بعد أن تخلّى عن شعاره السّابق، الذي كان يقضى بأمر أصحابه بالخلود إلى الأرض. الذي يعني الامتناع عن أيّ نشاط أو عملٍ سياسي. وصولاً إلى حِراك أهل "العراق" بكوفتها وبصرتها

باتجاهه. ومن المعلوم أنّ "الكوفة" بالخصوص ذات تاريخٍ حافلٍ في الوقوف إلى جانب أهل البيت. مهما تكُن المدينة مقموعةً الآن، بعد الهول الذي نزل بها في "صفّين". ثم في تنازُل الإمام الحسن (عليه السلام) عمّا له من بيعةٍ. وما استولده التنازل من حالة، يمكن وصفها بحالة يأس. لم تُشفَ المدينةُ منها ومن آثارها في مستقبل أيامها أبدا.

لذلك فإننا سنرى منصور منذ الآن يوجّه جهوده باتجاه "الكوفة". بوصفها الساحة الأساسيّة للمعركة الكبرى القادمة.

(12)

في هذه المرحلة من التأريخ، التي تعمل على تتبُّع أعمال منصور في التّحضير للمعركة المحتومة القادمة. تُفاجئنا كُتُبُ الأخبار الكُبرى ذات الهيبة، بأنّها بعيدةٌ كلَّ البُعد عن مواكبة التسلسل التاريخي البسيط للأحداث. فتخلط ما بين شعبان ورمضان.

يقول الطبري:٥/ ٣٨٤: " دعا يزيدُ سرجونَ مولى معاوية، فقال: "ما رأيك، فإن حسيناً قد توجّه نحو الكوفة. ومسلمُ بن عقيل يُبايعُ للحسين. فما ترى مَن أستعملُ على الكوفة؟

"فقال سرجون: أرأيتَ معاوية لو نُشر لك أكنتَ تأخذ برأيه؟ فقال:

نعم!. فأخرج عهدَ عُبيد الله على الكوفة. وقال: هذا رأي معاوية. ومات وقد أمر بهذا الكتاب ".

يبدو لنا بعد التأمُّل في مادّة هذه الرواية، أنّها قد عُجنت وخُبزت في معجن منصور أو أحد اعوانه على عَجَل. بحيث أتت على هذا المستوى من التهافت. إذ يجعل من سركون ابن منصور الأول، الشخص الحامل رقم (٢) في سلسلة السركونيين الثلاثة، ما يزال حيّاً زمن (خلافة) يزيد (٦٠ـ ٦٤ ه). مع أنّه كان قد مات بالتأكيد. وكان الدّور الآن لابنه منصور الثاني، القديس يوحنا.

(13)

الرواية عاريةٌ من السّند. لكنّها منقولةٌ بيسير اختلاف في (الكامل) لابن الأثير:٢٢/٤. وفي (تجارب الأُمم) لابن مسكويه:٦ / ٧٠. كما صحّحها شيخنا الشيخ محمد الريشهري في كتابه (الصحيح من مقتل سيد الشهداء وأصحابه / ٣٤١ ـ ٤٣). وذلك تطبيقاً للمنهج الذي بنى عليه كتابه. وهو منهج أهل الحديث إجمالاً. الذي يمنح الأهميّة القصوى في نقد وتصحيح نصوص الحديث أو الخبر لحُسن حال رجاله / رُواته بالدرجة الأُولى. دون التّمعُّن في متن الحديث، لاكتشاف مناسبة الحكم للموضوع.

وقد ناقشته طويلاً، في آخر لقاءٍ ضمّنا في "دار الحديث" في "قُمّ"، قُبيل وفاته رحمه الله، في صحّة هذه الرواية. لأنّه لم يأخذ في الاعتبار ضرورة إضافة اعتبار مضمون المتن في الخبر، واتساقه مع الحالة السياسيّة إجمالاً، وفقاً للمنهج الذي عرضناه فيما فات. الذي يوجب أن يأخذ المؤرّخ بنظر الاعتبار أيضاً دور السّياق والقصة في تركيب النصوص الخبريّة وفي نقدها. الأمرُ الذي، إن نحن أخذنا به، فسنصلُ إلى الحكم ببطلان الخبر. على الأقلّ لأن سرجون كان قد توفي يوم كان "مسلم بن عقيل يُبايع للحسين" في "الكوفة". وكان الدّور آنذاك لبطل اللحظة من البيت السركوني ابنه منصور/ يوحنّا. فضلاً عن المبالغة غير المعقولة في مواهب معاوية العجيبة.

(14)

مهما يكُن، فإنّ من أبرز ما انطوت عليه الرواية، أنّها تُقدّم معاوية شخصاً يتمتّع برؤيةٍ مستقبليّةٍ قويّة دقيقة. إلى درجة أنّها تمنحه القدرة على رؤية ما سيكون بعد زمانٍ طويل، رؤيةً تفصيليّةً واضحة لديه تماماً، دون أي ريب لديه في مضمونها. إلى درجة أن تكون عنده كافيةً وحدها لأن يتخذ سبقاً وسلفاً التدبير المناسب الصحيح. يُثبته بأمرٍ مكتوب مُذيّلٍ بتوقيعه. يأتمن عليه سرگون دون غيره. ليأتي يزيد، وبالحَـري

منصور بالفعل، بعد شهور. ليطرح الأمرَ على سرگون دون غيره، فيجد لديه خط معاوية جاهزاً ليعمل بمقتضاه.

النتيجة من تأمُّل المؤرخ في تلك المجموعة من التدبيرات والمصادفات أنّ الخبر موضوع. وأنّ الغاية منه ليس إلا التهويل والحيلةُ لفرض مضمون التدبير. أي تعيين عُبيد الله بن زياد دون غيره والياً على "الكوفة". كيما يواجه الحراك السياسي للإمام الحسين. وهو الآن يأخذ البيعة لنفسه من أهل "الكوفة" على يــد ابن عمّه مسلم.

ذلك أنّ ضمّ ولاية "الكوفة" إلى عُبيد الله، بالإضافة إلى ولايته على "البصرة"، حين يصدر من منصور، يُمكن أن ينطوي على نمطٍ من الاستهانة بأهل "العراق". لأنّه في النهاية رجلٌ مسيحيّ، يعمل في خدمة دولةٍ مسيحيّة. لا تصحّ ولايته على المسلمين. فكيف بأن يولّي أحداً عليهم. وعليه فقد جرى إخراج التولية بنسبتها إلى معاوية.

(15)

ثم أنّ هاهنا أمرٌ لم يلاحظه شيخنا الرّيّشهري. على ما عُرف به من براعةٍ وتمكُّن ودقّة مُلاحظة بشأن رجال سند الأحاديث. هو أنّ الرّاوي الأوّل للواقعة المزعومة نفسها اسمه عوانة بن الحكم الكلبي. الأمر الذي يُفهم منه أنّه، أي عوانة، كان حاضراً في الواقعة بكامل

تفاصيلها. وعنه، فيما يبدو، أخذ الرّاوية الفذُّ أبو مُخنف الخبر ونشره، بحيث وصل إلينا. من ضمن سعيه القيّم باتجاه جمْع وتسجيل أحداث "كربلا"، من أفواه الرجال الذين ضربوا فيها بسهم. أو عمّن سمعوا ممّن شهدوها. وبحيث أيضاً زكّاه شيخنا الرّيشهري.

ذلك أنّ الذي يظهر من اسم عوانة "الكلبي"، أنّه من بني كلب، الأُسرة الأكبر عدداً ونفوذاً في "حوّارين". التي رأينا منصور قبل قليل يُشكّل منها أعضاء دولته. كما أنّ منها ميسون، أُمّ يزيد الذي سيجعله منصور خليفة المسلمين. الأمرُ الذي يمكن أن نفهم منه، أنّ الرجل كان له من المكانة العالية في النظام ما يؤهّله لحضور الاجتماعات التي تجري فيها المُباحثات الخطيرة في شؤون النظام.

ثم أنّنا لدى مراجعتنا فهرست الأعلام في تاريخ الطبري، لاحظنا أن اسم الرجل يتردّدُ كثيراً جـــداً في الكتاب. إلى درجة أنّ واضع فهرست الكتاب أدرج اسمه ضمن أسماء الرُواة الأوائل لمادة الكتاب الكبيرة. لكثرة ما روى عنه المؤلف في كتابه.

كما لاحظنا أن رواياته إجمالاً تُظهره حاضراً أو مُشاركاً في الاجتماعات التي تُتّخـــذ فيها القرارات الكبرى في "دمشق". الأمر الذي يجعلنا نكاد نعتقد، أنّه كان مُكلّفاً بإذاعة بياناتٍ بما يُتّخَـذُ من

قرارات في تلك الاجتماعات. فكأنّه وزير إعلامٍ كما اليوم يُذيع القرارات التي اتخذها مجلس الوزراء.

(16)

المُهمّ، ومهما يكُن وجه الحقّ فيما قُلناه على هذه الخزعبلات، فإنّ ما غدا بمنزلة الأمر الثابت عندنا، أنّ منصور قد اتخذ كامل الأُهبة لمعركةٍ كان يراها بحقّ قادمةً لامحالة. بأن شكّل كامل جهاز الدولة الأساسي كلّه من أُسرته الكلبيّة. في رأس الجهاز نظريّاً حامل لقب (الخليفة) يزيد بن ميسون الكلبي. الذي لم يكُن أكثر من قطعة تجميليّة لا غنى عنها في الفريق. أمّا الرأس الفعلي للجهاز فهو منصور بن سرگون الكلبي، المُمسك المُطلَق الصلاحيّة بالشأن المالي لكامل المنطقة الشامية وتوابعها جبايةً وصرفاً. وبالتّبع لكافة الشؤون ذات العلاقة بالقرار السياسي، والشأن الأمني العام. وفي رأسها طبعاً قرارُ السّلم والحرب. والأربعة الباقون كلهم من الأُسرة نفسها. عدا المسؤول عن أمنه الشخصي. الذي يبدو أنّه عيّنه هو بالذات لاعتباراتٍ خاصةٍ، تعود إلى كفاءته بنظر سيّده في الشأن الأمني الخاص الشخصي، وثقته الشخصيّة به. كما أنّه نجح بتولية عبيد الله بن زياد على "الكوفة" بالإضافة إلى "البصرة". وهو العدو الشّرس لأهل البيت (عليهم السلام) كأبيه الدّاهية، الذي كان من أهميّته لدى معاوية أنّه استلحقه بأبيه أبو سفيان. بالزّعم أنّ

أباه كان من الذين واقعوا أُمّه البغي، بتاريخٍ يتناسب مع تاريخ ولادة زياد.

وبهذا وذاك بات منصور مُمسكاً بالسُّلطة، وبالخصوص بقرار الحرب والسِّلم، في "الشام" و "العراق" معاً. وعلى تمام الاستعداد لمواجهة الإمام (عليه السلام)، الذي كان آنذاك يسلك طريقه الشّاقّ نحو "الكوفة".

(17)

هنا أمرٌ لا بُـدّ لنا من الوقوف عنده مليّاً.

ذلك أنّ كافّة الأُكتوبات على سيرة منصور، تحت عنوان "القديس يوحنا الدمشقي"، تقول أن تاريخ ولادته هو سنة ٦٧٦ للميلاد، أي سنة ٥٧ للهجرة. الأمر الذي يعني أنّه كان في الرّابعة من عمره يوم "كربلا". أي أنّه ينفي ضمناً أيَّ دورٍ له في ذلك اليوم المشؤوم.

هذا التاريخ لولادة منصور غير صحيحٍ قطعاً. ولم نرَ أحداً من الذين ردّدوه قد أرجعوه إلى مصدرٍ من المصادر الممكنة. والظاهر أنّه ارتجالي. ارتجله أحدٌ، لم نتمكّن بعد البحث الواسع من معرفته. هذا إن لم يكُن قد وُضع ومن ثـّمّ رُدّد عمداً، ليكون بمثابة صكّ براءة ضمنيّاً لمنصور ممّا يُنسبُ إليه من أعمال. ابتداءً من العمل على فرْض يزيد

بن ميسون خليفة. إلى نيله وتشنيعه الوقح على الإسلام ونبيّه وكتابه في "دمشق". وانتهاءً بدوره في إدارة فظائع يوم "كربلا" الرّهيب.

ذلك أنّ هذا التاريخ لمولد منصور يقتضي أنّه لم يكُن له أي دور في المجيء بيزيد بن ميسون إلى الخلافة (٦٠ ـ ٦٤ هـ)، تحت اسم يزيد بن معاوية. مع أنّ دوره الأساسي في هذا الشأن محلّ إجماعٍ بين المؤرخين الحقيقيين. كما أنّه يقتضي أنّه ارتكب علناً ما قد عرفناه من أعمالٍ سيئة بحق الإسلام يوم كان عبد الملك بن مروان الخليفة (٦٥ ـ٨٦هـ). أي أنّ منصور عندما كان يجلس بكامل الرّاحة في قصر الخضراء، فيسخر ويشتم ويفتري كما تشاءُ له أحقاده، كان الخليفة الجبّار عبد الملك في القصر يسمع ويرى. ومع ذلك فقد كان لا يعترض أو ينهى. وكأن الأمـــر لا يخصّه، ولا يعني شيئاً له.

ذلك أمرٌ أقلُّ ما يُقال فيه أنّه مستحيل في ظل هذا الخليفة الفقيه الحازم. الذي كان من أوّل وأبرز أعماله إنهاء مفعول المعاهدة العُمريّة المشؤومة إلى الأبد. وليذهبْ الرّوم والتهديد بقوّتهم العسكريّة الكبيرة إلى الجحيم. فضلاً عن أنّه صكّ العُملة الإسلاميّة الأُولى، وبذلك حرّر النقد في دار الإسلام نهائياً من العُملة الروميّة.

لذلك نؤكّدُ ما قلناه غير مرّةٍ في غير كتابٍ من كُتُبنا، أن منصور كان إبان أنشطته في "دمشق"، ثم يوم "كربلا"، رجلاً مكتمل الرجولة.

نقدّر، استناداً إلى ما نعرفه من سيرته بين مولده في "دمشق"، وقضائه زمن فتوته في "حوّارين"، وارتحاله إلى "روما"، ومكوثه فيها زمناً يتسع لترسيمه كاهناً، إلى عوده واستقراره في "دمشق" وأعماله فيها ـ أنه كان إبّان ذلك في حوالي الثلاثين على الأقلّ.

(13)

ممّا لا ريب فيه عندنا، وليذهب النّافون السّاعون إلى تبرئة منصور من إثمها إلى الجحيم، أنّه هو الذي نظّم القتل الفظيع لخير أهل الأرض يومها، سيّد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام). ومعه أعظم الأبطال الاستشهاديين وخيرة الأُمّة، الذين استشهدوا ببصيرةٍ كاملةٍ بين يديه.

نقول ذلك. ثم نُضيف، إنّه لم يكتفِ بما فعل في "كربلا". بل تابع من ثَمّ وعمل كل ما في وُسعه على أن يكون ذلك اليوم ليس نهايةً لمعركة. بل ونهايةً للتاريخ النبيل للإسلام. وبدايةً لتاريخٍ لُحمته وسُداه الفجورُ وأهلُه. وذلك عن طريق تعليماته، التي نفترض أنّه كان يوجّهها إلى مَن اختاره عن معرفةٍ وقصد، ليكون اليدَ الباطشة في خدمة مقاصده، التي كان قد بدأها وعمل عليها في "دمشق". وما هو إلا عُبيد الله بن زياد.

نقول: "نفترض" لأنّ تلك التعليمات كانت سرّيّة، فلا نجدُ نصّاً عليها. لكن الأفعال الآتية هي التي كشفتها. وبيّنت بالخصوص أنّها غير مسبوقة في أخلاق الحرب عند العرب في كلّ تاريخهم.

نعني بذلك أمريَن:

ـ الأول: دَوْس الجسد الشريف للإمام، ظهره وبطنه، بحوافر الخيول، جيئةً وذهوباً.

ـ الثاني: حَمْل نساء وأطفال الشهداء إلى "دمشق" على أطول طريقٍ بين "الكوفة" و"دمشق" وأكثره عُمراناً.

العملان يبدوان للقارئ غبيّان. ليس منهما أدنى فائدة لمُرتكبهما، بعد أن شفى غليله من خصومه. وبعد أن حسمت المعركة الخطرَ الذي كانت تُمثّله نهضةُ الإمام (عليه السلام) على الدولة لصالحها وحدها.

لكن كلُّ شيءٍ يدلُّ على أن منصور رمى منهما إلى تحويل نتيجة المعركة وما تلاها إلى درسٍ لكلّ مَن يرى. على كلّ مَن يُفكّر كما كان الإمام سيّد الشهداء يُفكّر، أن يُدخله في حسابه وحُسبانه. وبالخصوص في مصير نسائه وأطفاله. لذلك ارتكب ذلك العرْض غير المسبوق ولا الملحوق. بحيث يراه أكبرُ عددٍ ممكنٍ من الناس. فيكون عبرةً لهم.

(14)

لكنّ غرور منصور أعماه عن أن يرى الوجه الآخَــر من أعماله. وهو ارتكاس الناس عليها، وكيف يتلقّونها. الأمر الذي على كلّ من يشتغل بالأمر العام أن يأخذه في حُسبانه.

ثمّة قاعدةٌ في العمل العامّ ذي الصّفة السياسيّة تقول: ليس من المهم فقط ماذا تفعل. بل من الأهمّ كيف سيفهمُك الناس.

البشر يتقاتلون دائماً، ويقتلُ بعضهم بعضاً دائماً. وقد يكون ذلك موضعَ افتخارٍ وبطولة. لكن أن تتعامل مع جسد خصمك بعد أن قتلته بمثل ما عومل به الجسد الشريف للإمام بعد قتله، فذلك أمرٌ مختلف. يدخلُ في باب النّذالة على الأقلّ. فكيف وصاحبه إمامٌ، ذو مقامٍ عالٍ عند الكافّة!

ثم أنّ العرب يعتبرون سبي النساء من جملة مكاسب الحرب المشروعة أخلاقيّاً. أمّا أن يُسبى ذلك العدد الكبير من النساء والأطفال ويُعاملون بما عرفناه. في تحدٍّ غير مسبوق لنظرة البشر إجمالاً إلى المرأة والطفل، فذلك بنفسه أمرٌ غير مسبوق في كلّ تاريخ العُنف بين العرب. فكيف والسّبايا من لُحمة النبي!

ذلك ما رفع درجة الغضب العام على الجريمة إلى درجةٍ غير مسبوقة. لذلك فإنّه ما أن انتهى ذلك الاستعراض السّخيف والبالغ القسوة، حتى انفجر المجتمعُ انفجاراً عامّاً شاملاً. لسنا نعرفُ له مثيلاً.

ثمّة أيضاً هنا فضلٌ ينبغي أن نُسجّله لشعراء ذلك الزمان. لأنّهم هم الذين سبقوا إلى تغذية وتحريض مشاعر الناس في شعرهم البكائي على ما ارتُكب في "كربلا". الذي اكتسب إسماً جديداً "المُكتّمات"، لأن قائليه كتموا أسماءهم خشية مُلاحقة أرباب السُلطة لهم. وقد جمعنا ما وصل إلى يدنا منه في كتابنا (الشعر الحسيني البُكائي المُبكّر) مع التعليق عليها بما يُناسب.

(15)

والحقيقةُ أنّ المُكتّمات ظاهرةٌ شعريّة جديـــــدة غير مسبوقة بما تحلّت به من وظيفة أشبه بالرسالة. وبما التزمت به من صدق. فيها وضع شعراؤها أمامهم هدفاً أشبه برسالة. هو تغذية حالة الغضب العامّة لدى الناس من جرائم يوم "كربلا". ابتغاء تحويلها من موقفٍ وانفعالٍ عاطفي، إلى رؤية سياسيّة واجتماعيّة للحَدَث الكربلائي وضُروب تفاعله. بحيث أغنته، بما حملت من فهمٍ واضحٍ وصادقٍ له. خلافاً لكل التراث الشعري السّابق الذي كان، بكل ما فيه من مدحٍ وغزلٍ ورثاء، أداءً شخصانيّاً. يتعاملُ مع مرامي الشّاعر الشّخصيّة ولا يتجاوزها.

هكذا تحوّل الحدثُ بما فيه من طاقةٍ ذاتيّةٍ، وبما غذّاها به شعراءُ المُكتّمات، إلى حالة غضبٍ عام. قلبت حالةَ الفرح العابرة لدى مُرتكبي الجريمة أو هلّلوا لها، إلى حالة رعب. عبّرت عن نفسها بلوم المروانيين أبناء عمهم السفيانيين على الطريقة، فقط الطريقة، التي أداروا بها القضاء على الخطر، الذي مثّلته نهضةُ الإمام على الاثنين.

في سياق هذه الحالة حصل اغتيال يزيد، الذي يبدو أنّ المروانيين هم أصحاب الفضل فيه. وذلك، فيما يبدو أيضاً، بعد مطاردةٍ حثيثةٍ لـــــــه. عرفنا ذلك من أن شاعراً مجهولاً، أي من شـــــــــعراء

المُكتّمات، قال في أبيات:

**يا أيها الملــك المُغلّق بابَـــه        حصلت أُمورٌ أمرهـنّ عظيـمُ**

**قتلى بحـرّى والذين ببابـــلٍ        ويزيد أُعلــن شـأنه المكتـومُ**

**حضرت منيّته وعند وســاده        كأسٌ وزقٌّ راعـفٌ مركـــومُ**

**ومُرنّـــة تبكـى على مقتولــةٍ        في الليل تقعدُ عندها وتقــومُ**

وهذه الأبيات تضمّنت الإشارة الوحيدة إلى الطريقة التي انتهت بها حياةُ يزيد بن ميسون الكلبي. لولاها لخفي علينا أمرُ نهاية حياته. وهي واضحةٌ، بما فيه الكفاية، في أنّه اغتيل اغتيالاً، في خباءٍ بمكانٍ خلويّ بعيدٍ، بعد مُطاردةٍ حثيثةٍ له.

فردّ عليهم السّفيانيون باغتيال مروان بن الحَكَم، الذي قفـــز إلى العرش على أثـــر اغتيال صاحب العرش. ليردّ عليهم المروانيّــون باغتيال مَن سُمّي "معاوية الثاني" بن يزيد فيما قيل. ذلك الفتى المسكين الذي ليس يُعرَفُ عنه قليلٌ ولا كثير. سوى أنّه لم يتمتّع بالعرش. بل ربما لم يكن يفهم أو يتفهّم معنى أنّه بات الخليفة، لصغر سنّه وضعف تجربته.

(16)

في هذا الجوّ المُحتدم، الذي طال ما يزيد على السنة وأكثر، ضاع منصور، أو فلنقُل إنّه أضاع الطريق، فلم يعُد يعرفُ أين يُولّي وجهه وأين يتجه وماذا يفعل. مع أنّه كان ما يزال على ما كان على ما كان عليه من سُلطة، بل أكثر. بفضل القتل الذّريع المُتبادَل بين الأُمويين، الذي لم يستبقِ أحداً منهم بـ "دمشق"، على قاعدة المسؤولية عمّا آلت إليه الأُمور بعد "كربلا". وما أنشأته من فراغٍ يكاد يكون تاماً في السُّلطة. كما كان تحت يده جبلٌ من المال، يتصرّف فيه كيف يشاء.

مشكلة منصور الآن باتت أنّه فقد الوجه الذي يختبئ وراءه، في كلّ ماعدا وظيفته الأصليّة المعلومة. كان عنده سابقاً (الخليفة) يزيد، يُدبّره ويفعل كلَّ ما يشاء باسمه. بما فيه "كربلا" التي قُتل يزيد عقاباً له على ما ارتُكب فيها. مع أنّ منصور هو الذي صمّم وهندس وحرّض على كل ما حصل فيها وبعدها.

كلٌّ شيءٍ يدل على أنّه كان يُعملُ الفكرَ عميقاً، فيما يمكن أن يُتابع به مشروعه الرّامي إلى مُتابعة ما كان قد بدأه في "دمشق" بشأن الإسلام. ممّا بات القارئ يعرفه. بعد أن فشل المشروع الذي صمّمه بـ "كربلا". بل وانقلب عليه، كما عرفنا، انقلاباً تامّاً. بحيث استولد وضعاً إيجابيّاً جديداً، ما كان له أن ينتج بالتطوّر السّلمي. عبّر عنه الشعار السّائر: "كل ما عندنا من عاشوراء".

(17)

كل ما سيحدث بعد قليل يدلُّ على أن منصور كان قد اتخذ قراراً من أمريَن اثنين.

ـ الأول: أن يتخلّى عن كافّة أعماله في "دمشق"، عدا طبعاً وظيفته الرّسميّة. لأن العمل فيها، بمثل ما كان يعمل سابقاً، بات الآن مستحيلاً، للسبب الذي قُلناه أعلاه.

ـ الثاني: توجيه طعنةٍ نجلاء إلى الإسلام في الصّميم مباشرةً. موجهةٌ إلى قلبه "المدينة"، مدينة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم). وهو عملٌ، نعرفُ وكان هو يعرف، أنّه ينطوي على الانتقام وشفاء الغليل فقط، في مُقابل الفشل السّابق في "دمشق"، بفضل نهضة الإمام الحسين (     ) وتداعياتها. ولن يكون له أيّ مفعول سياسي مباشر ومؤثّر،

بمستوى ما رمى إليه بأعماله السابقة في "دمشق". ولا له أي مفعول دفاعي عن الذّات، من مثل ما دعم به عملَ وبُغية السُّلطة في "كربلا".

نعني بذلك الحدَث الذي دخل التاريخ تحت إسم "وقعة الحَرّة" سنة ٦٣هـ/ . أي بعد سنتين ونيّف من وقعة "كربلا".

(18)

ممّا يزيدنا لوماً وأسفاً على مكتبتنا (التاريخية)، وهي في الحقيقة خبريّة فقط، أنّها، في هذه النقطة بالذات، تفشلُ فشلاً ذريعاً في أن تُيسّرَ لنا الإمساك بالحقيقة. بل كأنّها تعملُ كلَّ ما بوسعها على تضليلنا، وكأنّها تقصد ذلك قصداً. وذلك بأن صوّرت تلك الوقعة الرّهيبة بوصفها ردَّ فعل على نقض "المدينة" بيعتها ليزيد. بسبب ما جنته يداه في "كربلا". لولاها لَما نزل بهم ما نزل، من صنوف القتل الذّريع وهتك الأعراض ونهب المُمتلكات. أي أن أهل "المدينة" بالنتيجة هم الذين يتحمّلون المسؤوليّة عمّا نزل بهم.

هذا كلامٌ يستحقّ أن يوصَفَ بأنّه تضليليّ على الأقلّ. إن لم نقُل أنّه مُتواطئٌ مع الفاعل الحقيقي للجريمة. على الأقلّ لأن يزيد كان قد توفي، أو بالأحرى اغتيل، قبل تاريخٍ نُقدّره بسنةٍ على الأقل. إذن فهذا الفاعل

المَزعوم المقصود منه إخفاء الفاعل الحقيقي وراء تكوين وحركة ذلك الجيش الكبير.

فلنتكلّم أولاً في الوقائع.

(19)

في تاريخٍ ما من سنة ٦٣ ه انطلق من منطقةٍ ما من "الشام" جيشٌ من أربعة آلاف عسكري مُقاتل. بكامل تجهيزاتهم القتاليّة. مع مَن وما يكفي من كِراعٍ وتموينٍ، لقطع ذلك الطريق الشّاقّ الطويل إلى "المدينة"، الذي أغلبه صحراوي يباب. دون أن يُخفي أين يقصد. وعلى رأسه رجلٌ معروفٌ بأنّه قاتلٌ دمويّ معروف، ليس يعرفُ قلبُه الرّحمة. إسمه مُسلم بن عُقبة.

هذه الوقائع تطرحُ سؤالاً: مَن الذي كان يملكُ في "دمشق" الحافزَ والمُكنة لتهيئة وتكليف ذلك الجيش، مع الأخذ بعين الاعتبار الغاية المُعلنَة منه؟

في الجواب نقول:

من المعلوم أن "الشام" كلّه كان في ذلك الأوان في حالة فراغٍ أو عطالةٍ سياسيّةٍ كاملة. وذلك بسبب الاغتيالات المُتبادَلَة بين فريقَي البيت

الأُمويّ الحاكم. وهي التي لم تستبقِ أحداً آهلاً، أو قد يُحدّث نفسه بركوب ذلك العرش المُهلك المشؤوم. على قاعدة المَثَل الشعبي المعروف:" ما مُتّ، ما شُفت مَن مات!".

ومن المعلوم أيضاً، أنّ هذه الحالة قد استمرّت من بعد مدةً طويلة. أي حتى المجيء بعبد الملك بن مروان إلى الخلافة في ٢٧ / ٩ / ٦٥هـ. بفضل وبمساعي الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) على ما حقّقنا في الفصل المُخصَّص له، من كتابنا (الإمامة والأئمة).

(20)

من المؤكّـــــــد دون أدنى ريب، أن الوحيد في "دمشق" الـــذي كان

لديه الحافز لتهيئة وتدبير ما ارتكبه ذلك المُسمّى زوراً بـ (مُسلم) في مدينة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، هو منصور نفسه.، بعدما فشل ما كان قد صمّمه وهندسه سابقاً في "كربلا" وانقلابه عليه، بالنحو الذي بيّنّاه فيما سبق. أي لمُجرّد شفاء غليله فقط. حتى مع علمه المُسبَق بأن ما صمّمه وأشرف على تنفيذه لن يكون له أيَّ عائدٍ سياسي لمصلحته. وأنّه لن يبقى في يده منه شيءٌ سوى شفاء الغليل المؤقّت.

كما أنّه هو الوحيد فيها الذي كان يملك الملاءة الماليّة لتمويل تلك الحملة، بما كان يضع تحت يده واجتمع لديه من أموال خَراج البلاد الإسلاميّة. ولا ريب أيضاً أنّه اشترى بماله القاتلَ السّفاك ابن عُقبة وعسكره الكبير. ممّا يمنحنا القدرة على أن نتصوّر جبلَ المال الذي أنفقه على الحملة. كما يمنحنا القُدرة على أن نتصوّر ما وراء القسوة المجنونة التي عامل بها العسكرُ أهلَ "المدينة". بالقتل الذّريع دون تمييز حتى الأطفال، والاعتداء على الأعراض، ونهب المُمتلكات. لا لشيء إلا لكسب القَتَلَة رضى مُموّل الحملة. ابتغاء الحصول على المزيد من أمواله.

هذا كلّه، إن نحن لم نأخذ ببعض التّلميحات إلى أن العسكر كان ضمنه أعدادٌ من غير المُسلمين. الأمـــرُ الذي يصعبُ الآن إثباته أو نفيه. لكنّه قد يصبُّ في تفسير القسوة المُفرطة، التي عامل العسكرُ بها أهلَ المدينة دون تمييز.

فضلاً عن أنّ منصور كان قادراً على تأمين ذلك بسهولة، من أهل بلده على الأقلّ، الذين رأيناهم غير مرّة، خزّانه البشري الذي يأخذ منه. كما يتناسب مع أصلِ مقاصده من وراء تنظيمه وتمويله الحملة.

(21)

الآن سؤالٌ أخير: كيف انتهى منصور؟

نقول في الجواب:

ما من شكٍّ في أنّه بقي على عمله في "دمشق". يتقاضى أموال الخراج، ويضمّها إلى الثروة التي بقيت تحت يده. دون أدنى اعتراض من أحد. ما قد يدلُّ على أنّ هذه المدينة العريقة، قد فقدت تماماً، من أسف، القدرةَ على المُبادرة في أهون الأُمور. وذلك نتيجة (التربية) السياسيّة الحقيرة التي تلقّوها على يد رجال السلطة المُتوالين، منذ المجيء بمعاوية إلى الولاية ثم إلى الخلافة. ثم نتيجة المعاهدة الذليلة، التي وقّعها الخليفة الثاني مع الروم. وهي التي ترتّب عليها ما بتنا نعرفه من صنوف البلايا.

لكنّ منصور ما أن علم بنجاح الإمام زين العابدين (عليه السلام) في ترميم الدولة الإسلاميّة المُتهالكة، بالمجيء بالأُموي الفقيه الوحيد والحازم عبد الملك بن مروان إلى الخلافة، حتى أُسقط ما في يده. وبات همّه الوحيد أن ينجو بحياته. قبل أن يدخلَ الخليفةُ الجديدُ "دمشق"، حيث سيُعامله حتماً بما يستحقّ. فتسلّل من المدينة هارباً بحياته، حاملاً ما استطاع حمله من أموال الخراج. ليسلك الطريق الصحراوي عبر صحراء "سيناء". لأنها الطريق الوحيد الخالية من العُمران في كلِّ ما حوله من أقطارٍ وبلدان. بحيث يمكن أن ينجو عليها من مطاردة الناس

له، بعد أن يعرفوا بهربه بأموالهم. فيقبضوا عليه. ويُصادروا الثروة التي سرقها. إلى أن قادته دروبهُ إلى كنيسةٍ صغيرةٍ على ســـاحل البحــر فنزلها. وفيها قضى ما بقي له من العمـــر. إلى أن توفي ودُفن فيها.

لكنّه في الأثناء، وقبل أن يتوفى، عملَ على أنفاق كلّ الأموال الجليلة التي بحوزته على بناء الكنيسة بناءً جديداً مُتقنا. بحيث جعل منها كاتدرائيّة في الغاية من العظمة والفخامة. حملت اسم القدّيسة كاترين، كما لا تزال حتى اليوم.

والحمد للّه رب العالمين

---